الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم
فى موعظة لقمان وما تشابه معها

د / فرج محمد فوج

مدرس البلاغة والنقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

الحمد لله الذى أعجز الخلق بسحر بيانه ، فلم تنبس شفاههم بما يوازى نظم قرآنه ، قول محكم ، وفصل متشابه ، ذاق العارفون لذة قربه ، وكمد الكارهون لعجزهم عن طلبه .

ونشهد أن لا إله إلا الله تحبب إليه المخلصون باطلاعهم فى كتابه،أسكرهم شراب معرفته ، وخالط دماءهم نور يقينه .

ونشهد أن سيدنا محمداً – ﷺ– عبد الله ورسوله ، الذى أوتى جوامع الكلم ، والبيان العمم ، فكان هديه أهدى سبيلا ، وأهله أقوى قبيلا – رضى الله عنهم – خير الفريقين مقاما وأحسن نديا .....

وبعد :

فإن كتاب الله لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، وأيما تقلبت بين جنباته وجدته غض الإهاب ، رحب الجناب ، بسط اليدين ، عطاءاته تترى ، قطوفه دانيه ، وفيوضاته رابية .

أعجز بمحكمه كما أعجز بما تكرر من آياته لفظاً ، أو اختلف تركيبه بتقدم أو تأخر ، أو زيد فى التعبير ، فأعمل العاقل فيه التدبير "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ" [1] ، فأدرك بغيته ، ونال طلبته – من قرع باباً يلجه ـــ .

---

[1] النساء : بعض الآية / ٨٢ ، ومحمد : بعض الآية / ٢٤ .

وتنكب عنه الحاقد "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا"[1] ، فهدى إلى أضل سبيل ، بما عطل من إمكانات فهوم ، وترك طرق علوم ، كان من الممكن أن تهديه فتخرجه من دجنات الجهل وغياهب الكفر إلى نور الدين وبرد اليقين .

ومن المسائل التى خاض فيها المغرضون ومن لف لفهم ممن قالوا إنا مستشرقون أو مستغربون التشابه فى القرآن الكريم .

وهو السهل الممتنع ، الدانى البعيد ، الطائع الأبى ، الذى قيل عنه : لماذا أتى به ؟ ولم لا يكون ، والقرآن جاء عميم الفوائد ، متشعب المقاصد ، متنوع الموارد ، لم تصادف فيه لفظة غير موضعها ، ولم تلتف بغير أليفتها ، فما كان النبو فى القول ، وإنما النظم الذى أعجز الخلائق ، وكسم الشقاشق .

وقد تناول قبلى قوم كثر – لهم من الله تعالى الأجر – المحكم والمتشابه وقد دار بخلدى أن أنال شرف المشاركة بتشريف يدى ، وإجلاء بصرى ، وتعطير أنفاسى ، بدوام النظر ، وتقليب الفكر فى آيات الله تعالى وقرآنه ، أروى العقل والقلب من سحر بيانه ، فتخيرت بعض قبساته أتنظر فيها متناولاً :

" الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم فى موعظة لقمان وما تشابه معها "

وقد قسمت البحث إلى تمهيد وعدة مباحث وخاتمة .

أما التمهيد فقد عالجت فيه النقاط الآتية : –

١.معنى المحكم والمتشابه وآراء العلماء فيهما .

٢.هل يمكن تحويل المحكم إلى متشابه؟

٣.القرآن بين الإحكام والتشابه .

---

[1] الفرقان " ٥ " .

٤.لماذا اشتمل القرآن على المتشابه ؟

وأما المباحث فجاءت على النحو التالى :

الأول : الإعجاز البلاغى فى آيات النهى عن الشرك .

الثانى : الوصية بالوالدين ، ولم خصت الأم بمزيد عناية .

الثالث : الله لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل .

الرابع : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

الخامس : الصبر على الأذى والعزيمة فى الأمر .

السادس : النهى عن التكبر والخيلاء .

السابع : من خصائص النظم القرآنى فى آيات الموعظة .

الثامن : سؤال وجواب حول الإفراد والجمع فى " لصوت الحمير " .

وأما الخاتمة فقد ضمنتها أهم ما توصلت إليه من نتائج أسفر عنها هذا البحث .

وبعد .....

فإنى لأرجو أن أكون قد وفقت لما عنيت ، وأرشدت إلى مـــا طلبـــت ، والله أسأل لمن أهدى إلى نصحاً ، وستر على عيباً ، وكل من أخذ بيدى نحو السجود بيـــن يدى الإعجاز البلاغى للذكر الحكيم ، أن يبارك الله فى عمره ، وأن ينسأ له فى أثـــره ، ويجعل له لسان صدق فى الآخرين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،

تمهيد :

المحكم والمتشابه

قال تعالى " هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ " [١] .

عرفت فى المقدمة أن مسألة إعجاز المتشابه قد شغلت الكثير من العلماء حتى أيامنا هذه ، ولكنهم فيما بينهم اختلفوا فى المراد بالمحكم والمتشابه ، وقبل أن نتناول هذه الآراء ، وقبل أن نبين بلاغة التعبير بالمتشابه نعرج بالمتلقى نحو معاجم اللغة نتعرف منهم على معنى الكلمتين فى اللغة .

المحكم والمتشابه فى اللغة :

المحكم : " من حكم حكماً وحكومة ، وحكام وحكمة * الحِكْمة (بالكسر) أى العدل ، أو الحلم ، أو العلم ، أو النبوة ، أو القرآن أو الإنجيل – والإحكام (بكسر الهمز) تستعمل فى معان متعددة لكنها مع تعددها ترجع إلى شىء واحد هو المنع . فيقولون : أحكم الأمر أى أتقنه ومنعه عن الفساد . ويقولون : أحكمه عن الأمر أى رجعه عنه ومنعه منه . ويقولون : حكم نفسه وحكم الناس : أى منع نفسه ومنع الناس عما لا ينبغى . ويقولون : أحكم الفرس : أى جعل له حَكَمَة (بفتحات ثلاث) ، والحَكَمَة : ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه تمنعه من الاضطراب [٢] – ، وأحكمه : أتقنه ... وسورة مُحْكَمَةٌ : غير منسوخة ، والآيات المحكمات .... أو التى أحكمت فلا يحتاج سامعها إلى تأويلها لبيانها كأقاصيص الأنبياء . [٣] .

---

[١] آل عمران " ٧ " .

[٢] ينظر مناهل العرفان للزرقانى ٢ /٢٧٠ – ط : دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٩٨٠م .

[٣] أساس البلاغة للزمخشرى / ١٣٧ (حكم) – ط : دار صادر – ، والقاموس المحيط للفيروزآبادى ٤ / ١٠٠ (حكم) – ط : مصطفى الحلبى بمصر ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م ، نشر دار الجيل بيروت لبنان – .

والذكر الحكيم : أى الحاكم لكم وعليكم ، أو هو المحكم الذى لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، فعيل بمعنى مُفعَل أحكم فهو محكم ، وفى حديث ابن عباس : قرأت المحكم على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يريد المفصل من القرآن ، لأنه لم ينسخ منه شىء ، وقيل : هو ما لم يكن متشابها ، لأنه أحكم بيانه بنفسه ولم يفتقر إلى غيره [١] .

المتشابه : من شبه أشباه شابهه : ماثله ، وتشابها واشتبها : أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا [٢] ، والشَّبْه والشبيه : المثل ، وأشبه الشىء الشىء : ماثله [٣] وفى المثل : من أشبه أباه فما ظلم [٤] .

وفى التنزيل "مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ" [٥] وشبهه إياه ، وشبهه به : مثله ، والمشتبهات من الأمور : المشكلات ، والمتشابهات : المتماثلات ، ويرى العلامة الزمخشرى أن تشابه واشتبه بمعنى واحد : " التبست لإشباه بعضها بعضاً [٦] ، ويقال : " اشتبه الشيئان وتشابها ، كقولك : استويا وتساويا والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً ، وقرئ : متشابها وغير متشابه – وذلك فى قوله تعالى فى سورة الأنعام : (مشتبها وغير متشابه) ، ويكون تقديره حينئذ عند الزمخشرى : – والزيتون متشابها وغير متشابه ، والرمان كذلك [٧] ، إذا فالمتشابهات عند الزمخشرى هى : المشتبهات [٨] .

---

[١] لسان العرب لابن منظور ٢ / ٩٥٢ (حكم) – ط : دار المعارف بمصر – .

[٢] نفسه .

[٣] نفسه .

[٤] نفسه .

[٥] الأنعام : بعض الآية / ٩٩ .

[٦] أساس البلاغة : ٣٢٠ (شبه) .

[٧] الكشاف للزمخشرى ٢ / ٤٩ – ط : دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان – ،

[٨] نفسه ٣٣٢/١ – عند التعرض للآية / ٧ من سورة آل عمران – ،

المعنى الاصطلاحى للمحكم والمتشابه :

اختلف العلماء على مدار الأعصار حتى عصرنا فى تعيين المراد بالمحكم ، وفى المراد بالمتشابه على أقوال عدة نوجزها فيما يلى :

" قيل : المحكم ما عرف المراد منه ، إما بالظهور وإما بالتأويل ، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة ، وخروج الدجال ، والحروف المقطعة فى أوائل السور .

وقيل : المحكم ما وضح معناه ، والمتشابه نقيضه [١] .

وقيل : المحكم مالا يحتمل من التأويل إلا وجها واحداً ، والمتشابه ما احتمل أوجهاً .

وقيل : المحكم ما كان معقول المعنى ، والمتشابه : بخلافه ، كأعداد الصلوات ، واختصاص الصيام برمضان دون شعبان . قاله الماوردى [٢] .

وقيل : المحكم ما استقل بنفسه ، والمتشابه : مالا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره [٣] .

وقيل : المحكم ما تأويله تنزيله ، والمتشابه مالا يدرك إلا بالتأويل .

وقيل : المحكم مالم تتكرر ألفاظه ، ومقابله المتشابه .

وقيل : المحكم الفرائض والوعد والوعيد ، والمتشابه : القصص والأمثال .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قال : المحكمات ناسخه ، وحلاله ، وحرامه ، وحدوده ، وفرائضه ، وما يؤمن به ويعمل به ، والمتشابهات منسوخة ، ومقدمه ، ومؤخره ، وأمثاله ، وأقسامه ، وما يؤمن به ولا يعمل به [٤] .

---

[١] ينظر التبيان للطيبى / ، ومناهل العرفان ٢ / ٢٧٣ .

[٢] ، [٤] ينظر مناهل العرفان ٢ / ٢٧٣ .

[٣] ينظر مناهل العرفان ٢ / ٢٧٢ .

وأخرج الفريابى عن مجاهد قال : المحكمات ما فيه الحلال والحرام ، وما سوى ذلك منه متشابه يصدق بعضه بعضاً .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع قال : المحكمات هى أوامره الزاجرة .

وأخرج عن إسحاق بن سويد : أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا فى هذه الآية

فقال أبوفاختة : فواتح السور . وقال يحيى : الفرائض ، والأمر ، والنهى ، والحلال

وأخرج الحاكم وغيره ، عن ابن عباس قال : الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات (قُلْ تَعَالَوْا . . . .) [١] ، والآيتان بعدها [٢] .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الضحاك قال : المحكمات مالم ينسخ منه ، والمتشابهات ما قد نسخ .

وأخرج ابن أبى حاتم : عن مقاتل بن حيان قال : المتشابهات فيما بلغنا . (الم) و (المص) .... الخ .

قال ابن أبى حاتم : وقد روى عن عكرمة وقتادة وغيرهما : أن المحكم الذى يعمل به والمتشابه الذى يؤمن به ، ولا يعمل به [٣] .

ويرى ابن عباس أيضاً : " أن المحكم مالا تختلف فيه الشرائع كتوحيد الله تعالى ، وتحريم الفواحش ... وأن المتشابه المجملات التى لم يتبين كحروف أوائل السور [٤] .

---

[١] الأنعام / ١٥١ .
[٢] ينظر المستدرك للحاكم ٢ / ٢٨٨ و ٣١٧ - تفسير سورتى آل عمران والأنعام - .
[٣] ينظر الإتقان فى علوم القرآن ١ / ٦٤٠ : ٦٤١ - ت : د / مصطفى ديب البغا ، ط : دار ابن كثير دمشق ، سوريا . ثالثة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م - .
[٤] التحرير والتنوير ٣ / ١٥٥ ، ومناهل العرفان ٢ / ٢٧٢ .

ويرى الأصم أن " المحكم ما اتضح دليله ، والمتشابه ما يحتاج إلى التدبر ، وذلك مثل قوله تعالى : "وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ" [١] ، " فأولها محكم وآخرها متشابه " [٢] .

وللجمهور مذهبان :

أولهما : أن المحكم ما اتضحت دلالته ، والمتشابه : ما استأثر الله بعلمه ، ونسب هذا القول لمالك فى رواية أشهب من جامع العتبية ، ونسبه الخفاجى إلى الحنفية ، وإليه مال الشاطبى فى الموافقات [٣] .

وثانيهما : أن المحكم الواضح الدلالة ، والمتشابه الخفيها ، وإليه مال الفخر [٤] .

وبعد هذا العرض لآراء السابقين التى لا تجد فروقاً بعيدة بينها تستوقفنا معها ، وليس هو بغيتنا ، وإنما أردنا بلاغة المتشابه فى موعظة لقمان مع بعض ما تشابه معها من آى الذكر الحكيم .

وإن كان الشيخ الزرقانى قد رأى أن هذه التعريفات لا يجد بينها تناقضاً ولا تعارضاً ، وإنما يلاحظ بينها تشابها وتقارباً ، ويرجح رأى الرازى ويرى أنه " أهداها سبيلاً ، وأوضحها بياناً ، لأن أمر الإحكام والتشابه يرجع - فى نظره - إلى وضوح المعنى المراد للشارع من كلامه وإلى عدم وضوحه " [٥] .

---

[١] الزخرف / ١١ .

[٢] التحرير والتنوير ٣ / ١٥٥ ، والتفسير الكبير للرازى ١٤٨/٧ .

[٣] الموافقات للشاطبى ٢ / ٣ / ٥٠ : ٦٠ - تعليق : محمد حسنين مخلوف ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - .

[٤] التفسير الكبير للفخر الرازى ٧ / ١٤٣ : ١٤٨ - ط : دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان . أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ - ، وينظر التحرير والتنوير ٣ / ١٥٥ : ١٥٦ ، ومناهل العرفان ٢ / ٢٧٢ .

[٥] مناهل العرفان ٢ / ٢٧٥ .

إلا أننا نرى رأى الشيخين الجليلين بدر بن جماعة (٧٣٣هـ) ، وبدر الدين الزركشى (٧٩٤هـ) فقد رأيا أن المتشابه ليس قصرا على آيات الصفات ، أو مطالع السور بالحروف المفردة وغير ذلك من الآراء التى أجملناها لك من قبل وإنما تمخض رأيهما على أن المتشابه كل ما جاء فيه تكرار بألفاظ متشابهة بتقديم أو تأخير ، أو زيادة أو نقص ، أو تفصيل أو إجمال فى الموضوع الواحد كقصة ، أو موعظة ... الخ . وهذا هو مذهب أحمد بن الزبير الغرناطى (٧٠٨هـ) فهو يرى أن المتشابه فى القرآن الكريم ، هو : " ما تكرر من آياته لفظا ، أو اختلف بتقديم أو تأخير ، وبعض زيادة فى التعبير [١] وما رآه الشيخ زكريا الأنصارى فقد اعتبر متشابهات القرآن بأنها : " المختلفة بزيادة أو تقديم ، أو إبدال حرف بآخر أو غير ذلك – أسئلة القرآن وأجوبتها –[٢] .

والمقصد الأسمى من هذا الدرس إظهار الإعجاز البلاغى للذكر الحكيم وذلك بالتصرف فى الأسلوب بنقله من مكان إلى مكان فى القصة الواحدة أو الموضوع الواحد لغرض بلاغى لا يدركه إلا أصحاب اللغة الذين خوطبوا بالقرآن وهم أرباب الفصاحة ، وجهابذة البلاغة ، وأساطين البيان مع الاحتفاظ بالمعنى [٣] .

وبناء على ما سبق فإن التعريف الاصطلاحى للمتشابه الذى سنسير على هديه فى دارستنا هو إيراد ألفاظ ومعان مكررة ، وتنويع عبارات القرآن من تقديم وتأخير ، وزيادة ونقصان ، وبديع ومعان وبيان ، وبسط واختصار وتعويض حرف بحرف فى الموضوع الواحد من قصة ، وموعظة ، ومثل وتشريع وآداب ... الخ . مما

---

[١] ملاك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه اللفظ من آى التنزيل لأحمد بن الزبير الغرناطى جـ١/٣-ت د/ محمود كامل أحمد ، ط:دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م - .

[٢] فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن للشيخ زكريا الأنصارى / ٧-ت : محمد على الصابونى ط : دار القرآن الكريم بيروت ، لبنان أولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م - .

[٣] كشف المعانى فى المتشابه من المثانى لبدر الدين بن جماعة / ٤٥ : ٤٦ -(مقدمة التحقيق) ت : د/ عبد الجواد خلف،منشورات.جامعة الدراسات الإسلامية بكراتشى ، باكستان ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م - .

تضمنها القرآن الكريم بعبارات معجزة أخرست الفصحاء وشهد بعلو بلاغتها الأعداء[١] .

فائدة : لكن لتمام الفائدة فى هذه النظرة العجلى لبلاغة المتشابه فى الذكر الحكيم يتحتم علينا أن نلقى الضوء حول مسألتين هامتين ترتبطان بهذا المبحث ارتباطا وثيقا وهما :

الأولى : أيمكن أن يتحول المتشابه إلى محكم ؟ وكيف يتأتى ذلك ؟

الثانية : بم ترد على القائلين بأن القرآن كله محكم ، أو أن كله متشابه ، أو أن بعضه محكم وبعضه متشابه ؟ وما الرأى الفصل فى ذلك ؟ ولم يأت المتشابه؟ .

وللجواب عن هاتين المسألتين نقول – وبالله التوفيق – :

أما عن المسألة الأولى : فعلى الرأى الذى ذهبنا إليه فإنه لا يمكن أن يتحول المتشابه إلى محكم ، وأما على رأى من يرى أن المحكم واضح الدلالة ، وأن المتشابه هو خفى الدلالة ، فإنه يمكن أن يتحول المتشابه إلى محكم ، وذلك فى الآيات الكونية التى ذكرها القرآن الكريم فإنها تكون خفية الدلالة فى عصر من الأعصار ، فإذا ما تقدمت العلوم ، وتفتقت الأفهام ، واستطاعت أن تفهم مخبوء سر الآية (لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) [٢] فإن خفى الآية الكونية إذا علم صارت جلية محكمة ، وبذا يمكن تحول المتشابه إلى محكم .

هذا عند من يجيز الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، ويجعل إعجاز القرآن ينقسم إلى قسمين : أولهما الإعجاز النظمى ، وثانيهما الإعجاز العلمى [٣]

---

(١) كشف المعانى فى المتشابه من المثانى /٨٠ والبرهان للزركشى ١/ ١١٢ ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : دار الجيل بيروت ، لبنان ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م – والكشاف للزمخشرى ٤ / ١١٨ : ١١٩ – .

(٢) النساء / ٨٣

(٣) التحرير والتنوير ٣ / ١٥٧

وأما عن المسألة الثانية فإنها تتناول أموراً عدة .

الأول : الرد على من قال أن القرآن كله محكم وحجته قول الله تعالى : " تلك ءَايَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ " [١] وقوله تعالى : " كتاب أُحْكِمَت ءَايَاتُهُ " [٢] فإنه حمل النص على ظاهره ورأى أن القرآن كله محكم .

وللرد عليه فإنه يعجبنا قول الزمخشري في أن المراد بإحكام الآيات أنها نظمت نظما رصينا محكما لا يقع فيه نقض ولا خلل " [٣] وكذلك كان رأى السيوطي فقد بين " أن المراد بإحكامه إتقانه وعدم تطرق النقض والاختلاف إليه " [٤] .

الثاني : الرد على من قال : أن القرآن كله متشابه وحجة من قال ذلك أنه أخذ بقول الله تعالى : " اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا " [٥] .

وقد ذهب من قال بغير ذلك أن المراد بكونه متشابها فإن " متشابها مطلق في مشابهة بعضه بعضا ، فكان متناولا لتشابه معانيه في الصحة والإحكام ، والبناء على الحق والصدق ، ومنفعة الخلق ، وتناسب ألفاظه وتناصفها في التخير والإصابة ، وتجاوب نظمة وتأليفه في الإعجاز والتبكيت ... ولما ثنى من قصصه وأنبائه ، و أحكامه ، وأوامره ، و نواهيه ، ووعده ، ووعيده ، ومواعظه " [٦] وكونه يشبه بعضه بعضا في الحق والصدق والإعجاز [٧] وأن القرآن تشابه في

---

[١] يونس / ١ .

[٢] هود / ١ .

[٣] الكشاف ٢ / ٣٦٣ .

[٤] الإتقان ١ / ٦٣٩ .

[٥] الزمر / ٢٣ .

[٦] الكشاف ٤ / ١١٨ : ١١٩ .

[٧] الإتقان ١ / ٦٣٩ .

الحسن والبلاغة والحقية ، وهو معنى (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [١]، [٢] .

الثالث : وهو الرأى الصواب والذى نميل إليه ، وهو يذهب إلى أن القرآن فيه المحكم والمتشابه ، ويرجح هذا الرأى قوله تعالى : " هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ " [٣] ويقوى جانب هذا الترجيح قوله تعالى بعد الإجمال السابق : " فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ " فإن هذا تفصيل لإجمال اقتضاه الكلام السابق ، لأن لما قسم الكتاب إلى محكم ومتشابه ، وكان ذلك التقسيم باعتبار دلالة الألفاظ على المعانى ، تشوفت النفس إلى معرفة تلقى الناس للمتشابه ، أما المحكم فتلقى الناس له على طريقة واحدة ، فلا حاجة إلى تفصيل فيه واقتصر فى التفصيل على ذكر قسم من أقسامه ، وهو حال الذين فى قلوبهم زيغ كيف تلقيهم للمتشابهات ، لأن بيان هذا هو الأهم فى الغرض المسوق له الكلام ، وهو كشف شبهة الذين غرتهم المتشابهات ولم يهتدوا إلى حق تأويلها ، ويعرف حال قسيمهم وهم الذين لا زيغ فى قلوبهم بطريق المقابلة ثم سيصرح بإجمال حال المهتدين فى تلقى متشابهات القرآن" [٤]

الرابع : لماذا اشتمل القرآن على المتشابه ؟

اجتهد العلماء – ﷺ – فى إبراز فوائد إيراد المتشابه فى الذكر الحكيم ، وقد ذكروا لذلك فوائد جمة منها .

---

[١] النساء /٨٢ .

[٢] التحرير والتنوير ٣/١٥٦ .

[٣] آل عمران / ٧ .

[٤] التحرير والتنوير ٣ / ١٦١ .

- حث العلماء على النظر فى المتشابه للعلم أو لمحاولة العلم بغوامضه ، والبحث عن دقائقه فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب إن كان مما يمكن علمه .

- إظهار التفاضل وتفاوت الدرجات ، إذ لو كان القرآن كله محكما لا يحتاج إلى تأويل ونظر ولاستوت منازل الخلق ، ولم يظهر فضل العالم على غيره ، وذلك فيما تظهر فائدته .

- ابتلاء العباد بالوقوف عند المتشابه والتوقف فيه ، والتفويض والتسليم والتعبد بالاشتغال به . [١]

- رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف الذى لا يطيق معرفة كل شىء ، وإذا كان الجبل حين تجلى له ربه جعله دكا وخر موسى صعقا ، فكيف لو تجلى سبحانه بذاته وحقائق صفاته للإنسان .

- إقامة الدليل على عجز الإنسان وجهالته ، مهما عظم استعداده وغزر علمه ، وان الله وحده هو المحيط بكل شىء علما .

- ما ذكره الفخر الرازى بقوله : إن القرآن يشتمل على دعوة الخواص والعوام ، وطبائع العوام تنبو فى أكثر الأمور عن إدراك الحقائق فمن سمع من العوام فى أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه ، ظن أن هذا عدم ونفى محض ، فيقع فى التعليل فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه وما توهموه ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح ، فالقسم الأول وهو الذى يخاطبون به فى أول الأمر من باب المتشابه والقسم الثانى وهو الذى يكشف عن الحق الصريح هو المحكم . [٢]

---

[١] معترك الأقران للسيوطى ١ / ١٥٩ ت : على محمد البجاوى ط : دار الفكر العربى ، ومناهل العرفان ٢ / ٢٨٢ .

[٢] ينظر التفسير الكبير ٧ / ١٤٣ : ١٤٨ ، ومناهل العرفان ٢ / ٢٨٣ .

- ما ذكره الفخر الرازى أيضاً لو كان - القرآن - كله محكما بالكلية لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد ، وكان بصريحه مبطلا لجميع المذاهب المخالفة له ، وذلك منفـــر لأرباب المذاهب الأخرى عن النظر فيه .

أما وجود المتشابه والمحكم فيه فيطمع كل ذى مذهب أن يجد فيه كل ما يؤيـــد مذهبه فيضطر إلى النظر فيه ، وقد يتخلص المبطل عن باطله ، إذا أمعن فيه النظر ، فيصل إلى الحق [١]

- تيسير حفظ القرآن ، وإعمال العقل ، وزيادة المشقة فى الفـــهم والإدراك وكلمـــا زادت المشقة زاد معها الأجر .

- الوقوف على متشابه القرآن يحتاج إلى فهمه وإلى تحصيل علوم ، كثيرة منـــها ، علم اللغة ، والنحو ، والمعانى ، والبيان ، وأصول الفقه ، وغير ذلك من العلـــوم الأخرى ، ولولا ذلك لما احتيج إليها .

- آخرها وهو الأهم تحقيق إعجاز القرآن ، لأن كل ما استتبع فيه شيئا من الخفـــاء المؤدى إلى التشابه ، له مدخل عظيم فى بلاغته وبلوغه الطـــرف الأعلـــى فـــى البيان

- إثراء البحث البلاغى ، بما حواه المتشابه من لطائف وأسرار بلاغية مـــن كـــون الآية عند مشابهتها لغيرها مع وجود اختلاف بينـــهما فـــى الإيجـــاز ، والإطنـــاب ، والمساواة ، والذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ... الخ .

(ينظر جـــ١ / ٢١٩ : ٢٣٠ من مناهل العرفان وذلك لتضمنه فوائد لذكـــر المتشابه فى القرآن الكريم).

---

[١] التفسير الكبير ٧ / ١٤٣ ، ومناهل العرفان ٢ / ٢٨٤ .

- المتشابه يتميز بما توفر فيه من أوجه التشابه التى تكد القرائح فى استكناه كنـــه النص ، وذلك باستدعاء الدقائق الخفية حتى نفتح تلك المغاليق ونـــدرك المرمـــى من وراء النص .

- حسر الستار عن الطرائف التى تتأبى على النظرة السطحية بما تتمع به من بلاغـة عالية لا تدرك إلا بحس بلاغى مرهف ، وذوق لماح .

- الوقوف على المعانى الكامنة فى المتشابه ، يرسخ الإيمان ، ويزيد اليقين .

المبحث الأول

الإعجاز البلاغى فى آيات النهى عن الشرك

وبعد هذا العرض المقتضب قصدا حتى لا نبتعد عن ما هدفنا إليه ألا وهو درس البلاغة العربية المتبادر إلينا من خلال وصية لقمان وما شابهها من آيات الذكر الحكيم مع إبراز بعض ما ذخرت به الموعظة من مسائل بلاغية ذات إيقاع معجز ، وترانيم مؤثرة بما اشتملت عليه من فخامة المعنى ، وإن شئت فقل إنما هو ضرب من ضروب الإعجاز المعنوى من إيراد اللفظ أو التراكيب على نسق واحد مع اختلاف معناها .

وكذلك لا يخلو الأمر فيها من إعجاز تمثل فى التصرف فى الأسلوب بنقله من مكان إلى مكان فى القصة الواحدة ، أو الموضوع الواحد لغرض بلاغى لا يدركه إلا أصحاب اللغة الذين خوطبوا بالقرآن وهم أرباب الفصاحة ، وجهابذة البلاغة ، وأساطين البيان ، مع الاحتفاظ بالمعنى [١] .

قال تعالى : " وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " [٢] افتتح لقمان الحكيم موعظته " بنداء المخاطب الموعوظ مع إن توجيه الخطاب مغن عن ندائه لحضوره بالخطاب ، فالنداء – فى (يابنى) – مستعمل مجازا فى طلب حضور الذهن لوعى الكلام ، وذلك من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام " [٣] .

ولمزيد الاستمالة ، وترقيق القلوب العصية نجد لقمان قد وجه النداء لابنه ولم يستعمل الألفاظ المكبرة ، وإنما خاطب ولده بأسلوب التصغير فقال (يابنى) فليس التصغير هنا على حقيقته ، وإن كان اللفظ (بنى) جاء على التصغير ، وإنما كان

---

[١] كشف المعانى فى المتشابه من المثانى ٤٥ : ٤٦ .

[٢] لقمان / ١٣ .

[٣] التحرير والتنوير ٢١ / ١٥٤ .

ذلك على وجه " الترقيق " كما يقال للرجل : ياأُخَيَّ [١] ومخاطبة الكبير مخاطبة الصغير إنما هو كناية عن الشفقة به والتحبب له ، وهو فى مقام الموعظة والنصيحة[٢] والتصغير يكون دلالة على حب المُصَغَّر والاعتناء بأمره ، وهو على حد قول الشاعر : [٣] .

ماقلت حبيبى من التحقير بل يعذب اسم الشخص بالتصغير

وقال أخر :

ولكن إذا ماحب شئ وتولعت به أحرف التصغير من شدة الوجد

ويتشابه مع هذا النداء والأسلوب ما جاء فى قصة نوح – عليه السلام – لما نادى ابنه " يابنى اركب معنا " [٤] فإنه ما كان هذا النداء رغم معرفة نوح – عليه السلام – بأن ولده هالك ، لكن " شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء " [٥] وسواء أجاب ابن كل من لقمان أو نوح فإن توافر دواعى العطف والحب الكامنة فى قلب الأب فإنهما لم يفقدا الأمل حتى ولو فى آخر لحظة فى أن يستجيب الابن لكل منهما ، ومن ثم اتبع النداء بأمر (اركب معنا) لأن الأمر لا يتسع لمحاورة ، فإنه الموت المحقق ، بينما اتبع النداء فى قصة لقمان بالنهى (لا تشرك بالله) لاختلاف حالة الأب فى الثانية عن الأولى .

قوله تعالى "لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم" [٦] والمتشابه مع مطلع هذه الآية قوله تعالى : "ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا" [٧] وقوله تعالى :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٦٣ وروح المعانى ٢١ / ٨٤ .
(٢) التحرير والتنوير ٢١ / ١٥٥ .
(٣) ينظر حاشية الشهاب ٧ / ١٣٥ وحاشية محيى الدين شيخ زادة ٤ / ٣٥ .
(٤) هود بعض الآية/ ٤٢ .
(٥) التفسير الكبير ١٧ / ١٨٥ .
(٦) لقمان / ١٣ .
(٧) آل عمران / ٦٤ .

"وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" [١] وقوله تعالى : "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" [٢] .

فى وصية لقمان ابتدأ بأهم شىء وجب على كل إنسان أن يهتم به ألا وهو " الإقلاع عن الشرك ، لأنه الأصل ، ولأن صلاح العمل لا يتم إلا بصلاح الاعتقاد " [٣] ولأنه أهم من غيره " [٤] ومن ثم كان التقديم للأهمية ، وقد تشابه الأمر هنا فى وصية لقمان مع ما جاء من قبل فى سورة آل عمران ، والنساء ، والأنعام بيد أن الأسلوب وافق ما قبله من حيث إن الخطاب فى سورة لقمان موجه لفرد واحد ومن ثم استعملت التاء فى بداية المضارع ، بينما لما كان النهى موجها للجميع استخدمت (النون) وجاءت كلمة (شيئا) فى الآيات الثلاث الأخيرة لقرينة الحال لدى المخاطبين ، أو للتعريض بهم – النصارى واليهود وغيرهم – ممن جعلوا مع الله شريكا ، فكانت (شيئا) للنهى العام الشامل للشركاء والوسطاء ، ويقصد بها أى شيئا من الأشياء وذلك على أنها مفعول به ، أو شيئا من الإشراك على أنها مفعول مطلق بينما لم تعقب فى المتشابه معها فى سورة لقمان على اعتبار أن النهى عن الإشراك فى سورة لقمان اتبع بجملة (إن الشرك لظلم عظيم) إن واسمها واللام المزحلقة ، وظلم خبرها ، وعظيم صفة ، تعليل للنهى عن الشرك وتهويل لأمره [٥] ليكون بمثابة التحذير لابن لقمان ولغيره .

وجوز ابن عطية أن تكون جملة (إن الشرك لظلم عظيم) من كلام الله تعالى

---

[١] النساء / ٣٦ .

[٢] الأنعام / ١٥١ .

[٣] ينظر التحرير والتنوير ٢١ / ١٥٥ .

[٤] ينظر فتح القدير للشوكانى ٤ / ٢٣٨ ط : دار الفكر .

[٥] ينظر التحرير والتنوير ٢١ / ١٥٥،وينظر إعراب القرآن لمحيى الدين الدرويش ٥٣٤/٧ – ط : دار اليمامة ودار ابن كثير دمشق ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

– وليست على حكاية كلام لقمان ، أى أنها معترضة – بين كلمة لقمان [١] وقد رجح ذلك العلامة الشوكانى ، وصرح بأن الجملة من كلام الله تعالى ، وأنها منقطعة عما قبلها وأن الذى رجح ذلك ، ما ثبت فى الحديث الصحيح أنها لما نزلت الآية : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [٢] شق ذلك على الصحابة وقالوا: أينا لم يظلم نفسه فأنزل الله (إن الشرك لظلم عظيم) فطابت أنفسهم [٣].

ويجمع هذه الآيات المتشابهات وجه واحد ألا وهو أن هذه الآيات جاءت بأسلوب النهى فى (لا تشرك) نهى عن الإشراك ، لأن إصلاح الاعتقاد هو مفتاح باب الإصلاح فى العاجل ، والفلاح فى الآجل ، وإذا كان النهى ، طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام ، وهو أحد أقسام الإنشاء الطلبى – والنهى له صيغة واحدة هى المضارع المقرون بـ " لا " الناهية الجازمة .

وأصل النهى عن الشىء،أن يكون حين التلبس بالشىء المنهى عنه أو عند مقاربة التلبس به " [٤] ومن هنا كان وجه الافتراق بين المتشابهات فى (لا تشرك) أنها لما جاءت (شيئا) عقيبها ، دل ذلك على التلبس بالفعل من المشركين واليهود ، والنصارى ، وأما عن قوله تعالى "أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا "[٥] فإنها لم تأت على أن المسلمين اقترفوا الشرك أو كادوا يقتربون منه ، وإنما النص الكريم من أول قوله تعالى : " ألا نعبد إلا الله .. " إلى أخره على التعريض بالذين عبدوا المسيح كلهم .

بينما النهى هنا فى سورة لقمان لم يأت للتلبس بالفعل ، وإنما خوف الوقوع فى الفعل على رأى من ذهب إلى أن ابن لقمان لم يكن مشركا ، وإنما الموعظة من باب

---

[١] ينظر المحرر الوجيز وروح المعانى ١٨٦/٧ ، والتحرير والتنوير ١٥٥/٢١ .

[٢] الأنعام / ٨٢ .

[٣] فتح القدير ٤ / ٢٣٨ ، والتحرير والتنوير ٢١ / ١٥٥ .

[٤] التحرير والتنوير ١ / ١٥٤ .

[٥] آل عمران / ٦٤ .

الشفقة عليه أما النهى فى الآيات الأخر فإنه جاء بعد أمر بالعبادة ولا تحقق إلا إذا كانت خالصة لله تعالى ، ومن هنا كان اتباع النهى بكلمة (شيئا) لأن من أشرك شيئا مع الله لم يكن مخلصا "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ"[1] .

---

[1] البينة / ٥ .

المبحث الثانى

الوصية بالوالدين ولم خصت الأم بمزيد عناية ؟

وأما قوله تعالى : "وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ" (١)

وقد جاءت الوصية بالوالدين فى أكثر من آية ما بين إجمال فى التوصيـــة ، أو تفصيل فيها وذكر الحال (حسنا) أو تركه وهذه الآيات هى :

قوله تعالى : "وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا" (٢)

وقوله تعالى : "وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا" (٣)

وقوله تعالى : "لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" (٤)

وقوله تعالى: "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" (٥)

وقولـــه تعـــالى : "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" (٦)

---

(١) لقمان / ١٤ .

(٢) العنكبوت / ٨ .

(٣) الأحقاف / ١٥ .

(٤) البقرة / ٨٣ .

(٥) النساء / ٣٦ .

(٦) الأنعام / ١٥١ .

وقوله تعالى : "وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" [١]

فى الآيات الثلاث الأول التى صدرت بكلمة (وصينا) نجد الأخيرتين منهما جاءتا على الاستئناف ، تنزيلهم الكلام إذا جاء بعقب ما يقتضى سؤالا منزلته إذا صرح بذلك السؤال [٢] .

وقد عرفه التنوخى بقوله : " هو الإتيان بعد تمام كلام بقول يفهم منه جواب سؤال مقدر "[٣] ، وكأن سؤالا فرض نفسه وماذا عن العلاقة بين الآباء والأبناء فى ظلال الدين الجديد – الإسلام – فجاءت الوصية على الاستئناف للشروع فى تقرير حقوق الأبوين وتحديد طاعتهما [٤] كما أن فيه تعزية ومواساة للنبى المصطفى – ﷺ – من حيث تأخر بعض الناس فى الإقبال عليه والاستجابة له ، ومن ثم جاءت الوصية على أنها " كلام مستأنف مسوق لبيان العبرة فى اختلاف حال الإنسان مع أبويه فقد يطيعهما وقد يخالفهما وما دام الإنسان مركوزا على هذه السجية فلا يبعد مثل هذا مع النبى – ﷺ "[٥] .

بينما نجد الوصية فى سورة لقمان جاءت على أنها " كلام معترض على سبيل الاستطراد وهو : أن يأخذ المتكلم فى معنى فبينا يمر فيه يأخذ فى معنى آخر وقد جعل الأول سببا له [٦] فى أثناء وصية لقمان مؤكدا لما اشتملت عليه من النهى عن الشرك[٧] ولما كانت الآيات الثلاث قد وجهت إلى الإنسان بعامة المسلم والكافر على السواء الأمر الضمنى بالوصية بالوالدين ، واشتمالها على ضمائر العظمة – نا الفاعلين – ووقع التشابه حتما بين هذه الآيات فأى بلاغة فى هذا ؟

---

(١) الإسراء / ٢٣ .

(٢) دلائل الإعجاز / ٢٣٥ـت : محمود محمد شاكر ط : المدنى ـ .

(٣) ينظر الأقصى القريب / ٦٨ وينظر الإيضاح / ١٥٦ وشروح التلخيص ٣ /٥٧ والمطول / ٢٥٩ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٠ / ٤٠٤ .

(٥) لينظر إعراب القرآن لمحيى الدين الدرويش ٩ / ١٧٥ .

(٦) الصناعتين / ٤٤٨ـت : د/ مفيد قميحة ط / العلمية طبعة أولى ١٤٠١هـ / ١٩١٨ م ـ .

(٧) إعراب القرآن للدرويش ٧ / ٥٣٧ .

إن الناظر لهذا الآيات نظرة عجلى لا يستطيع لأول وهلة أن يدرك ما تحويه من الأسرار ولا ما اكتنفته من فروق تجعل المتشابه كالمحكم فى أعلى درجات البلاغة وحق للراسخين فى العلم أن يقولوا : آمنا به كل من عند ربنا " ولا يظهر ذلك إلا بمعاودة النظر فى الآيات الكريمات .

فإن الآيات وإن تشابهت فى صوغ الكلمات إلا أنها اختلفت فى الأسلوب من حيث إن آية سورة لقمان حكاية ما سبق فى أمة أخرى ، والأخريين خطاب أنف لهذه الأمة[1] والأمر فيها محتاج إلي تفصيل سنذكره بعد أن ننتهى من عرض هذه الآيات :

ومجمل وجه الاختلاف فى الدلالة مع التشابه فى اللفظ ما ذكره العلامة الإسكافى بعد أن عرض بتحليل أخاذ لهذه الأوجه : " الوصية الأولى فى سورة العنكبوت وصية مجملة عامة للناس ، والثانية فيمن منعه أحد والديه عن الإيمان - سورة لقمان - والثالثة فيمن آمن وآمن أبواه ، وسأل الله أن يصلح أولاده ، وكان هذا مذكورا مع آية فى ذكر ولد كافر يجتهد والداه فى دعائه إلى الإيمان ، والثالث فى مؤمن أبواه ، والثانى فى مؤمن أحد أبويه يمنعه من الإيمان فالأول عام كما ترى ، وقد استوعبت القصة ما يحتاج إلى ذكره فى دعاء من يدعو ولده إلى كفره .[2]

هذا على الإجمال ، بيد أن فروقا دقيقة بين الآيات الثلاث تتمثل فيما يلى :

- أن الآية فى سورة العنكبوت ذكر فيها لفظ (حُسناً) وفى الأحقاف (إحسانا) وخلت من ذلك آية لقمان فلم تذكر فيها (حسنا) ؛ لأن قوله بعد (أن اشكر لى ولوالديك) قام مقامه . [3] وقد ذهب الغرناطى ، وابن جماعة ، وكذلك بعض

---

[1] التحرير والتنوير ٢١ / ١٥٦ : ١٥٧ .

[2] درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز للخطيب الإسكافى / ٣٥٠ط دار الأفاق الجديدة بيروت ، لبنان ، طبعة ثالثة ١٩٧٩م وينظر أيضاً ملاك التأويل لأحمد بن الزبير الغرناطى ٢ / ٧٦٢ : ٧٦٦ وفتح الرحمن للشيخ زكريا الأنصارى / ٤٣٥ .

[3] بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى ١ / ٣٦٠ت : محمد على النجار- ط/المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ثالثة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م- .

المفسرين المعنيين بالدرس البلاغى - الزمخشرى والطاهر بن عاشور وغيرهما - إلى أن إحسانا بمعنى حسنا ، بناء على أن هناك قراءة تؤيد ذلك . [١]

لكننا نرى أن ثمت فرقا دقيقا بين (حسنا) و (إحسانا) فما كانت الزيادة فى الكلمة لتأتى فى القرآن لغوا من القول ، ونرتضى فى ذلك قول الراغب الأصفهانى فقد ذهب إلى أن (حسنا) من " الحسن " أكثر ما يقال فى تعارف العامة فى المستحسن

- بينما (إحسانا) من (أحسن) والإحسان - أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له [٢] .

وعليه فإن الإحسان أعلى درجة وأوفر عطفا وأكثر تحنانا على المحسن إليه ونرى أن كلام الراغب أوقع وأجدر بأن ينظر إليه ، لأنه لما كانت وصية سورة العنكبوت جاءت لتبين موقف الإسلام من قضية العلاقة بين الآباء والأبناء وواجب الأبناء نحو آبائهم ناسب أن يكون (الحسن) هو المطلوب من حيث كون العلاقة بين كافر وكافر أو بين أب كافر وابن مسلم ، فى حين أن سورة الأحقاف تناولت أمرا يختلف عما تناولته به سورة العنكبوت فإن وصية سورة الأحقاف لتتكلم عن علاقة ابن مسلم بأبوين مسلمين ، ومن ثم تحتم على الولد الحسن إليهما باعتبار الأبوة ، ولزم زيادة الحسن ليكون الإحسان لكونهما أسلما فكان مع حق الأبوة حق الإسلام .

ويصدق حدسنا أن الأوامر التى وجهت للمسلمين وإن صح وإن أجتمع معهم فى الأمر الدعوة للأمم السابقة إلى الامتثال لأمر الله تعالى بألا يشركوا به شيئا وأن يحسنوا إلى الوالدين .

---

[١] ينظر الكشاف ٤ / ٢٩٤ ، والتحرير والتنوير ٢٠ / ٤٠٤ و ٢٦ / ٢٨ وكشف المعانى / ٢٨٨ وملاك التأويل ٢ / ٧٦٣ .

[٢] مفردات ألفاظ القرآن / ١٣٣ - ط : العلمية أولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م - .

والوصية فى سورة لقمان ، وإن تشابهت مع الوصية بالوالدين فى قوله تعالى : "لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" [١] وقوله : "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" [٢] وقوله سبحانه : "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" [٣] وقوله جل شأنه : "وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" [٤] إلا أن كل آية من هذه الآيات الكريمات انفردت عن غيرها بوجه بلاغى يبرز جمال المتشابه فى القرآن الكريم .

أما عن قوله تعالى : " لا تعبدون إلا الله " فهو خبر فى معنى الأمر – فهى على تقدير اعبدوا – ومجىء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر ، لأن الخبر مستعمل فى غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله بالشىء الحاصل حتى أنه يخبر عنه ... وقوله : (وبالوالدين إحسانا) ... أمر مؤكد لما دل عيه تقديم المتعلق على متعلقة وبالوالدين – وكان تقديم الوالدين لأنهما آكد فى البر والإحسان ، وتقديم المجرور على العامل اعتناء بمتعلق الحرف وهما الوالدان ، واهتماما بأمرهما وجاء هذا الترتيب اعتناء بالأوكد [٥] وأصله إحسانا بالوالدين ، والمصدر بدل من فعله والتقدير وأحسنوا بالوالدين إحسانا " [٦]

وأما قوله تعالى : "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" فقدم فيه الأمر بعبادة الله تعالى وعدم الإشراك على وجه الإدماج – وهو ما سماه العسكرى : المضاعفة والتى عرفها بقوله : هو أن يتضمن الكلام معنيين : معنى مصرح به ومعنى كالمشار

---

[١] البقرة / ٨٣ .
[٢] النساء / ٣٦ .
[٣] الأنعام / ١٥١ .
[٤] الإسراء / ٢٣ .
[٥] البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ١ / ٤٥٩ ط : دار الفكر ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ـ .
[٦] ينظر التحرير والتنوير ١ / ٥٨٢ .

إليه[١] فالمصرح به الأمر بعبادة الله والنهى عن الإشراك ، والمعنى المشار إليه نفى الشرك ودوام العبادة لله تعالى ، وهو كلام مستأنف مسوق لبيان حقوق الوالدين و آخرين .

وقد اختلفت الآية عن سابقتها فى أن السابقة جاء الأمر بالعبادة والنهى عن الشرك على طريق القصر – لا تعبدون إلا الله ، بينما فى هذه الآية مال عن طريق القصر وإن كان مجموع الجملتين – " واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا " –

فى قوة صيغة القصر ، وإنما عدل عنه لأنه لم يقصد الأمر الأول – العبادة من حيث كونه واقعا فعلا فى المؤمنين فمقتضى الحال والمقام لا يستدعى ذلك ، أما فى قوله تعالى : ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ... الخ ﴾ فجاء بطريق القصر ؛ لأن المقصد هو الأمر الأول وهو العبادة ولأن المقصود – به – إيقاظهم إلى إبطال عبادة غير الله ، لأنهم قالوا لموسى ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[٢] ، ولأنهم عبدوا العجل فى مدة مناجاة موسى ربه ، فأخذ عليهم الميثاق بالنهى عن عبادة غير الله .[٣]

بينما فى آية سورة الأنعام ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ جاء الأسلوب فيها على التوهيم – وهو : أن يأتى المتكلم فى كلامه بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام أن المتكلم أراد تصحيفها ومراده على خلاف ما توهم السامع فيها[٤] فإن ظاهر الكلام فى الجملة يدل على تحريم نفى الشرك ، وملزومه تحليل الشرك ، وهذا محال ، خلاف المعنى المراد .. ولو جاء الكلام بغير (لا) لا نبتر واختل وفسد معناه فإنه يصير المعنى حرم عليكم الشرك ، والإحسان للوالدين ، وهذا ضد المعنى المراد ، ولهذا جاءت الزيادة التى أوهم ظاهرها فساد المعنى ليلجأ إلى التأويل الذى يصح به عطف بقية الوصايا على ما تقدم .[٥]

---

[١] الصناعتين / ٤٧٧ .
[٢] الأعراف / ١٣٨ .
[٣] التحرير والتنوير ٥ / ٤٨ .
[٤] تحرير التحبير لابن أبى الإصبع / ٣٤٩ ت: حفنى شرف ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وبديع القرآن لابن أبى الإصبع / ١٣١ – ت: حفنى شرف ط : نهضة مصر .
[٥] إعراب القرآن ٣ / ٢٧٠ .

وأما آية سورة الإسراء (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) فمثلها مثل سابقتها من الآيات البينات جاءت بأحكام عظيمة لإصلاح الأمة الإسلامية ، مع تعريض بالمشركين الذين كانوا واقعين فى نفس جملة المنهيات التى تحدثت عنها الآيات ، وأن الأوامر التى أمرت بها الآيات المسلمين أن يعملوا بما فيها كانت قد أمر بها المشركون من قبل ولم يقوموا بها ، وأكثر تشابها بآية سورة الإسراء آية سورة الأنعام بيد أنها تختلف عنها .

ومن بعض أوجه الاختلاف بين الأسلوبين " أن هذه الآية افتتحت بفعل القضاء المقتضى الإلزام ، وهو مناسب لخطاب أمة تمتثل لأمر ربها ، وافتتح خطاب سورة الأنعام بـ (تعالوا) فعل أمر ، أو اسم فعل أمر ، بمعنى أقدم .

هذه الآية جعلت المقضى هو توحيد الله بالعبادة ؛ لأنه المناسب لحال المسلمين فحذرهم من عبادة غير الله ، وآية سورة الأنعام جعلت المحرم فيها هو الإشراك بالله فى الإلهية المناسب لما كانوا عليه من الشرك إذ لا عبادة لهم فى هذه الآية فصل فيها حكم البر بالوالدين ... الخ .

جئ بخطاب الجماعة فى قوله (ألا تعبدوا إلا إياه) ؛ لأن النهى يتعلق بجميع الناس وهو تعريض بالمشركين .

الخطاب فى قوله (ربك) للنبى - ﷺ - ويجوز أن يكون لغير معين فيعم الأمة والمآل واحد . [1]

قوله تعالى : "حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ"

ومثله قوله جل شأنه : "حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا"

---

[1] ينظر التحرير والتنوير ٨ / ١٥٥و ١٥ / ٦٥ .

ولما أن تشابهت الوصية بالوالدين فى سورة العنكبوت مع نظيرتها فى سورتى لقمان والأحقاف ، وقد أشرنا من قبل إلى بعض أوجه المخالفة التى تكشف لنا عن مدى عظم النسق القرآنى ، وها نحن نتابع بذكر بعض أوجه هذا الاختلاف :

فى سورة العنكبوت لم يذكر فيها (حمله) ولا (وضعه) موافقة لما قبله من الاختصار وهو قوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) فإنه ذكر فيها جميع ما يقع بالمؤمنين بأوجز كلام ، وأحسن نظام ، ثم قال بعده ، (ووصينا الإنسان) أى ألزمناه (حسنا) فى حقهما ، وقياما بأمرهما ، و إعراضا عنهما وخلافا لقولهما إن أمراه بالشرك بالله.

وذكر فى لقمان والأحقاف حاله فى حمله ووضعه (٢)

أما عن ذكر حاله فى حمله فقال تعالى فى سورة لقمان : (حملته أمه وهنا على وهن) وفى سورة الأحقاف قال سبحانه : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ فإننا نجد التشابه الواقع بين الآيتين أن كلتيهما جاءتا على خصوص بعد عموم لبيان أهمية العناية بالأم ، والاعتناء بشأنها (٣) وأن كل جملة منهما لا محل لها لأنها جاءت تعليلية للوصية (وحملته أمه) فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ، (وهنا) و (كرها) حال من أمه ، أى ذات وهن أو ذات كره ، أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى تهن وهنا ، وقيل منتصب بنزع الخافض أى حملته بضعف على ضعف .

ولكن الآيتين تختلفان فى أن عبر فى الأولى بكلمة (وهنا) وهو الضعف والمراد بيان حال المرأة أنها خفيفة رشيقة لخلو بطنها فإذا ما حملته وامتلأ جوفها فإنها تضعف عن القيام ، وتزداد فى الضعف كلما زاد الامتلاء ودخلت فى أشهر الحمل ، وذلك على غرار " قول الجعدى " (٤)

---

(١) العنكبوت / ٧ .

(٢) بصائر ذوى التمييز ١ / ٣٦٠ :٣٦١ .

(٣) ينظر التحرير والتنوير ٢١ / ١٥٣ ، ٢٦ / ٢٨ .

(٤) ينظر إعراب القرآن لمحيى الدين الدرويش ٧ / ٥٣٧ و ٩ / ١٧٦ .

تُوهِنُ فِيه المضرجيَّة بعدما رَوِينَ نجيعًا مِن دَمِ الجَوفِ أحمرا

أى تضعف عن النهوض ، لامتلاء أجوافها . [١] والوهن : الضعف فى العمل [٢]

والكُره : بفتح الكاف وبضمها مصدر أكره ، إذا امتعض من شىء ، وبالضم ما أكرهت نفسك عليه ، وبالفتح ما أكرهك غيرك عليه [٣] وقد جاءت الآية بالقراءتين فقد قرأ الجمهور (كَرها) فى الموضعين بفتح الكاف ، وقرأ عاصم ، وحمزة والكسائى وابن ذكوان عن ابن عامر ويعقوب بضم الكاف فى الموضعين [٤].

وفى ذلك من البلاغة ما فيه من حيث إن الكره منه ما اشتركت فيه المرأة حال مؤانستها لحال لزوجها ، ومنه ما فرض عليها وليس لها دخل فيه ، من حيث إن الوضع وخروج الجنين من البطن وقت مقدر ، " ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ " . [٥]

ومن العرض لمعنى المفردتين - (كرها) و (وهنا) يتضح لنا أن اختلافا بينا بين المتشابهتين ، وأن كل آية جاءت فى موقعها متفردة بجمال أسلوبها ، وعظيم سبكها فإن آية سورة لقمان ذكرت حوارا بين أب مؤمن وولد كافر اعتمد على الإيجاز مكتفيا بذكر حال الضعف الذى يعترى الأم إبان فترة حملها وهو المعنى به فى الآية ، وليس الوهن فى أول العلوق ، وإنما بينت الآية أنه يتزايد كلما دخلت فى أشهر الحمل - وهنا على وهن - واختيرت على دون غيرها للدلالة على الزيادة وتمكن التعب من الأم [٦] بينما فى سورة الأحقاف كان الحوار بين ابن مؤمن وأبوين كافرين - أبى بكر الصديق ووالده أبى قحافة ، وأمه أم الخير - لذا كان بعض

---

[١] أساس البلاغة / ٦٩٢ (وهن) ط : دار صادر ، بيروت ، لبنان .

[٢] القاموس المحيط ٤ / ٢٧٨ (وهن) ط : دار الجيل ، بيروت ، لبنان .

[٣] القاموس المحيط ٤ / ٢٩٣ (كره) .

[٤] ينظر التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٩ .

[٥] عبس / ٢٠ .

[٦] ينظر البحر المحيط لأبى حيان ٨ / ٤١٤ - ورصف المبانى فى شرح حروف المعانى للإمام أحمد عبد النور المالقى / ٤٣٣ - ت : د/ أحمد محمد الخراط ثانية ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ط: دار القلم سوريا - .

التفصيل والزيادة بأن ذكر حالة الوضع [١] وعليه يكون المعنى : " حملته – أمه فـى بطنها متعبة من حمله تعبا يجعلها كارهة لأحوال ذلك العمل ، ووضعته بأوجاع وآلام جعلتها كارهة لوضعه ، وفى ذلك الحمل بالوضع فائدة له هى فائدة وجوده [٢] .

ومن أوجه الاختلاف بين المتشابهتين أن آية سورة الأحقـاف ، وآيـة سـورة لقمان من قبل فيهما إيجاز قصر ، وآية سورة الأحقاف فيها مع إيجاز القصر إيجـاز حذف فى قوله تعالى : "وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا" فإن الآية على تقدير حذف مضاف وهو : ومدة حمله [٣] .

وفى آية سورة الأحقاف لف ونشر – وهو : ذكر متعدد على جهة التفصيـل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرده إليه [٤] حيث لـف بين الحمل والفصال ، وأتبعهما بإجمال فى (ثلاثون شهرا) ثقة بأن السامع يرد مـا لكل على حده ، وذلك فى أن الآية صالحة للدلالة على أن مدة الحمل قد تكـون دون تسعة أشهر ، ولولا أنها تكون دون تسعة أشهر لحددته بتسعة أشهر .

هذا وقد روى الواحدى عن عكرمة أنه قال إذا حملت –المرأة – تسـعة أشـهر أرضعته أحدا وعشرين شهرا ، وإذا حملت ستة أشهر أرضعتـه أربعـة وعشـرين شهرا[٥] .

والغرض من هذا اللف والنشر فى الآية الكريمة أن تبقى المرأة مصونـة عـن تهمة الزنا والفاحشة إذا أتت لمولود أقل من المدة المعروفة لدى الناس [٦] .

---

[١] ينظر تفسير الواحدى .

[٢] التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٩ .

[٣] ينظر التفسير الكبير ٢٨ / ١٤ ط : دار الكتب العلمية أولى ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

[٤] الإيضاح للخطيب القزوينى / ٥٠٣ ، شرح د/ محمد عبد المنعم خفاجى ، ط دار الكتاب اللبنـانى طبعة خامسة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

[٥] البسيط للواحدى

[٦] ينظر التفسير الكبير ٢٨ / ١٥ .

فتقدير أن أقل مدة حمل هى ستة أشهر ، وتقدير أقصى أمد الإرضاع لإظهار حق الأم فى البر بما تحملته من مشقة الحمل ، فإن مشقة مدة الحمل أشد من مشقة الإرضاع .[١]

ومن أوجه الاختلاف بين آية سورة لقمان وسورة الأحقاف ، وبين سورة العنكبوت أن الآيتين جاءتا على الإطناب بذكر الخاص بعد العام لأهميته فقد ذكرت الأم بعد ذكر الوالدين - (حملته أُمُّه وهنًا على وهنٍ) [٢] و (حملته أُمُّه كرهًا ووضعته كرهًا) [٣] .

ولم يأت الإطناب خارجا عن حدود البلاغة ، وإنما جاء مطابقا لمقتضى الحال فوق ما أفادت الجملة من كونها جاءت ، فى موضع التعليل للوصاية بالوالدين قصدا لتأكيد تلك الوصاية ؛ لأن تعليل الحكم يفيده تأكيدا ولأن فى مضمون هذه الجملة ما يثير الباعث فى نفس الولد على أن يبر بأمه ، ويستتبع البر بأبيه .. وإنما وقع تعليل الوصاية بالوالدين بذكر أحوال خاصة بأحدهما وهى الأم اكتفاء بأن تلك الحالة تقتضى الوصاية بالأب أيضاً . [٤]

وإنما جاءت المطابقة لمقتضى الحال من جهة أن بناء آية سورة العنكبوت على قصة سعد بن أبى وقاص ، وما كان من فعل أمه وحلفها على ألا تأكل ولا تشرب ولا تستظل حتى يرجع سعد إلى دينها ، والقصة مشهورة فنزلت الآية ولم يقصد غير هذا فاكتفى بالتنبيه على الإحسان بهما ما لم يدعوا معا أو أحدهما إلى الشرك .

---

[١] ينظر التحرير والتنوير ٢٦ / ٣٠ .

[٢] لقمان / ١٣ .

[٣] الأحقاف / ١٥ .

[٤] التحرير والتنوير ٢١ / ١٥٨ .

ولما كان هذا حكما لا يخص أبا من أم لم يحتج إلى التنصيص على أحدهما ، فوقع الاكتفاء [١] .

ومن ثم خلت السورة من ذكر (الحمل) و (الوضع) موافقة لما قبله من الاختصار وهو قوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) فإنه ذكر فيها جميع ما يقع بالمؤمنين بأوجز كلام وأحسن نظام ، ثم قال بعده (ووصينا الإنسان) أى ألزمناه (حسنا) فى حقهما وقياما بأمرهما وإعراضا عنهما ، وخلافا لقولهما إن أمراه بالشرك بالله [٢] .

بينما فى آية سورة لقمان : " نبه على السبب الذى له عظم حقهما فقال : (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ) أى ضعف حمل مضافا إلى ضعف المرأة .

وقيل : ضعفا يتزايد على ضعف كما يتزايد ثقل الجنين ، وأرضعته عامين فهذه الآية قد تضمنت من البيان والتفصيل ما لم تتضمنه الأولى .

وأما الآية الثالثة فإنها وردت فيمن أوصى بوالديه وهما مؤمنان لا يمنعانه عن الإيمان فكانت الوصية الأولى فى سورة العنكبوت وصية مجملة عامة للناس والثانية فيمن منعه أحد والديه عن الإيمان ، والثالثة فيمن آمن وآمن أبواه . [٣]

هذا فيما إذا خصت آية سورة العنكبوت بأنها فى قصة سعد مع أمه ، وعليه فلا صحة لما ذهب إليه بعض المفسرين من أن بناء آية سورة لقمان هى الأخرى على قصة سعد [٤] لعدم مناسبة السياق .. ولا وجه لنزول آيتين فى غرض واحد ووقت مختلف [٥] .

---

[١] ملاك التأويل ٢ / ٧٦٤ .

[٢] بصائر ذوى التمييز ١ / ٣٦١ .

[٣] درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافى / ٣٤٩ : ٣٥٠ .

[٤] ينظر المحرر الوجيز لابن عطية ١٣ / ١٤ وروح المعانى ٢١ / ٨٦ .

[٥] ينظر التحرير والتنوير ٢١ / ١٥٧ .

ويرى الإمام فخر الدين الرازى أن ذكر الأم عقيب الوالدين وذكر الحمل والرضاع فى أن " حملته أمه أى صارت بقدرة الله سبب وجوده " [١] .

وكذلك يرى الرازى أن ذكر الأم فى الآية يدل أيضاً على أن حق الأم أعظم ؛ لأنه تعالى قال أولاً : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ فذكرهما معا ، ثم خص الأم بالذكر فقال : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وذلك يدل على أن حقها أعظم ، وأن وصول المشاق إليها بسبب الولد أكثر [٢] .

ويقول أبو حيان : " ولما خص الأم بالمشقات من الحمل ، والنفاس ، والإرضاع والتربية نبه على السبب الموجب للإيصاء ، ولذلك جاء فى الحديث الأمر ببر الأم ثلاث مرات ، ثم ذكر الأب فجعل له مرة . [٣] ولم ير أبو حيان غير ذلك ، وإنما رأى فى آيتى لقمان والأحقاف أن ذكر الأم ليس إلا للطيفة لما قال بوالديه ، وحمله ، وإرضاعه المعبر عنه بالفصال : " ناسب ما قال الرسول من جعل ثلاثة أرباع البر للأم ، والربع للأب فى قول الرجل : (يا رسول الله من أبر ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال:أبوك)[٤] .

وعد الزمخشرى جملة (حملته أمه وهنا على وهن) من الاعتراض على سبيل الاستطراد تأكيدا لما فى الوصية ، و أجاب على من قال : كيف اعترض بين المفسِّر والمفسَّر فقال : قلت ، " لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم وما تعانيه من المشاق والمتاعب فى حمله وفصاله ، وهذه المدة المتطاولة إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصاً ، وتذكيرا بحقها العظيم مفرداً [٥] .

---

[١] ينظر التفسير الكبير ٢٥ / ١٢٩

[٢] نفسه ٢٨ / ١٣ .

[٣] البحر المحيط ٨ / ٤١٣ ، وينظر صحيح مسلم كتاب البر والصلة (٤٥) باب بر الوالدين (١) حديث رقم /٢٥٤٨ .-

[٤] البحر المحيط ٩ / ٤٤٠ .

[٥] ينظر الكشاف ٣ / ٤٧٩ ، وينظر إعراب القرآن للدرويش ٧ / ٥٣٧ .

ومن أوجه الاختلاف أيضاً أن آية سورة لقمان خلت من كلمة (حسنا) أو (إحسانا) بينما ذكر ذلك فى سورتى العنكبوت والأحقاف ، وفى ذلك مطابقة لمقتضى الحال أيضاً كما أن التصريح بتحمل المشاق فى الحمل والإرضاع وما أعقب ذلك من الأمر بالشكر كان فى ذلك غناء عن التصريح بكلمة (حسنا) وفى ذلك يقول العلامة ابن جماعة عند تعرضه لسورة العنكبوت .

" إن هنا (وَلنجزِيَنَّهُم أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُون) وبر الوالدين من أحسن الأعمال فناسب ذكر (الإحسان) إليهما .

وآية الأحقاف نزلت فيمن أبواه مؤمنان فناسب وصيته بالإحسان إليهما وآية سورة لقمان : لما تضمنت ما ينبه على حقهما والإحسان إليهما بقوله تعالى : (حملته) و (وضعته) وشدة ما تقاسيه فى حمله وتربيته . وحمل أبيه أعباء حاجتها وحاجته وقوله تعالى : (أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ) أعنى ذلك عن ذكر (حسنا) المذكور هنا وفى الأحقاف [١] .

تنويه : من الملاحظ أن كلمة (إحسانا) جاءت عقب التنبيه بالإحسان إلى الوالدين فى سورة البقرة / ٨٣، والنساء / ٣٦ ، والأنعام / ١٥١ ، والإسراء/٢٣ .

وما كان ذلك إلا لأن الآيات المذكورة جاءت على سياق التوجيه العام بحسن معاملة الأبوين [٢] وغيرهما ، ولذا حسن التعبير بكلمة (إحسانا) المتضمنة الإحسان الفعلى والقولى ، فإن الله أمر بالإحسان الفعلى حيث يتعين ويدخل تحت قدرة المأمور ، وذلك الإحسان للوالدين ، وذى القربى واليتامى ، والمساكين ... الخ

وأمر بالإحسان القولى إذا تعذر الفعلى على حد قول أبى الطيب [٣]

---

[١] كشف المعانى فى المتشابه من المثانى / ٢٨٨ : ٢٨٩ .

[٢] ينظر التحرير والتنوير ١ / ٥٨٣ .

[٣] ديوانه ٣ / ٢٧٦ البيت من البسيط مطلع قصيدة مدح فى أبى شجاع فاتك،وصدره :

لا خيل عندك تهديها ولا مال ** ... ...

ديوانه شرح أبى البقاء العكبرى ، تصحيح مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى ط : مصطفى الحلبى بمصر ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .

... ... * فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الحَالُ

ومن أوجه الاختلاف أيضاً بين متشابهتى العنكبوت ولقمان فى الوصية بالوالدين أن جاء الخصوص بعد العموم فى سورة لقمان بجملة تفسيرية لوصينا- (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) - .

حيث الشكر لله سبحانه وتعالى ، وكذلك الشكر للوالدين ، وهى نهاية الجملة الاعتراضية عند من ذهب إلى أن قوله تعالى : " (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ) إلى قوله : (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) اعتراض .

وفائدته :- أى الاعتراض : تأكيد حق الوالدين بذكر تعبهما وما عاناه فى تربيته . ونظمه الأصلى : (ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر) وفى الآية دليل على مشقة الأم فى حمله ووضعه وتربيته - من جهة أنه ذكرهما بلفظ الوالدين المشتق من الولادة التى هى حقيقة فى الأم عرفا بل وضعا ، مجاز فى الأب ، فالأب فيها تابع للأم ، دخيل عليها منها ، فدل على تأكد حقها عليه فى البر كتأكد المتبوع على التابع.[1]

هذا وقد جاءت الجملة التفسيرية لتمهد للجملة التى تليها (وإن جاهداك) بينما لم يأت ذلك فى آية سورة العنكبوت ، فقد جاءت جملة (وإن جاهداك) عقيب الأمر بالوصية ولم تحتج لفاصل بينهما ، وما كان ذلك - والله أعلم - إلا أن آية سورة لقمان جاءت حكما أنفا لهذه الأمة بينما فى سورة العنكبوت جاءت الآية فى قصة (سعد مع أمه) ومن ثم كانت لقصد تقرير حكم الإحسان للوالدين فى كل حال إلا فى حال الإشراك حتى لا يلتبس على المسلمين وجه الجمع بين الأمر بالإحسان للوالدين وبين الأمر بعصيانهما إذا أمرا بالشرك ، لإبطال قول أبى جهل : أليس من دين محمد البر بالوالدين .. فعلم أنه لا تعارض بين الإحسان إلى الوالدين ، وبين إلغاء أمرهما ، بما لا يرجع إلى شأنهما.[2] وأما قوله تعالى فى سورة العنكبوت : " وإن جاهداك

---

[1] الإكسير فى علم التفسير للطوفى / ١٧١ - ت د/ عبد القادر حسين،ط: مكتبة الآداب بالقاهرة ١٩٧٧م .

[2] ينظر التحرير والتنوير ٢٠ / ٢١٣ .

لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما " ثم تعدية الفعل فى الجملة الشرطية باللام ، بينما فى سورة لقمان ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، ثم تعدية الفعل بـ (على) وإنما كان ذلك لفرق ما بين الآيتين فى السورتين ، من حيث بناء آية العنكبوت على الإيجاز فناسب ذلك الاكتفاء باللام وبناء آية لقمان على الإطالة فناسب ذلك التعدية بـ(على) ولو قدرنا عكس الواقع لما ناسب ، فجاء كل على ما يناسب [١] .

والمناسبة هنا أن فى سورة العنكبوت تمت الموافقة " لفظا للفظ اللام فى قوله (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) وحملا للمعنى بطريق التضمين فى لقمان إذ التقدير وإن حملاك على أن تشرك . [٢]

وكذلك كان التعبير بـ (على) لأنه " أدل على تمكن المجاهدة أى مجاهدة قوية للإشراك .. وهذا تأكيد للنهى عن الإصغاء إليهما - الوالدين - إذا دعوا للإشراك .

وأما آية العنكبوت فجئ فيها بـ (اللام) وذلك لعلة وهى : أن سعدا كان غنيا عن تأكيد النهى عن طاعة أمه لقوة إيمانه . [٣]

وقد اتفقت الجملتان فى السورتين على ذكر جملة (ما ليس لك به علم) أى إنه سبحانه - والله أعلم - أراد بنفى العلم نفيه أى لا تشرك بى ما ليس بشىء يريد الأصنام كقوله (ما يدعون من دونه من شىء) قال فى الانتصاف وتبعه الطيبى وغيره من الشراح هو من باب . [٤]

كَعلى لا حِبٍ لَا يُهتدى بِمَنارِه ** ... ...

---

(١) ملاك التأويل لأحمد بن الزبير الغرناطى ٢ / ٧٦٤ .

(٢) فتح الرحمن للشيخ زكريا الانصارى / ٤٣٦ وينظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادى ١ / ٣٦١ ط ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

(٣) التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٠ .

(٤) البيت لأمرئ القيس وعجزه : إذا ساقه النباطى جرجرا .
وموضع الشاهد فيه إيجاز قصر والتقدير لا منار ولا اهتداء .

أى فن عكس الظاهر ، أو نفى الشىء بإيجابه . [١]

ويكون المقصود حينئذ : أى ما ليس بإله فيكون لك علم بالإلهية وليس كما ذكره فى قول فرعون فيما حكاه القرآن : (ما عَلِمتُ لَكُم مِن إِلَه غَيرِى) [٢] يعنى أنه من الكناية ولا يلزم فيها اللزوم العقلى بل يكفى العرفى كما صرحوا به وقال المدقق فى الكشف : ليس هذا من قبيل نفى العلم لنفى وجوده ... و إلا لقال : ما ليس بموجود بل أراد أنه بولغ فى نفيه حتى جعل كلا شىء ، ثم بولغ فى سلك المجهول المطلق .

وهذا تقرير حسن فيه مبالغة عظيمة ، ومنه يظهر ترجيح هذا المسلك فى هذا المقام على أسلوب [٣]

... ... * وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِر .

وقال بعض الفضلاء ضعفه لما قيل أنه من خواص العلوم الفعلية دون الانفعالية إلا يلزم من عدم علمنا بشىء أن لا يكون موجودا

والظاهر أن مراد القائل أنه مجاز عنه ولا يلزم فيه اللزوم العقلى بل يكفى العرفى كما مر ، والذهن ينتقل من نفى العلم إلى انتفائه ، وفى شرح المفتاح أنه بناء على اللزوم الادعائى بمجرد الأصالة الفرعية . [٤]

وكذلك اجتمع الإيجاز بالحذف فى الآيتين كما اجتمع فيهما إيجاز القصر كما سبق وقد أتى الإيجاز بالحذف فى (وإِنْ جَاهَدَاكَ) فإن الآيتين على تقدير : وقلنا له:

---

[١] إعراب القرآن لمحيى الدين الدرويش ٧ / ٥٣٩ .

[٢] القصص /٣٨ .

[٣] البيت لأوس من حجر ، وصدره : لا يفزع الأرنب أهوالها .

وموضع الشاهد فيه إيجاز قصر والتقدير : أى لا جنب ، ولا إنجحار .

[٤] ينظر حاشية الشهاب ٧ / ١٣٦ والكشاف ٣ / ٤٧٩ وروح المعانى ١١ / ٢١ / ٨٧ و الإيضاح / ٢٨٩ بشرح خفاجى ط : دار الكتاب المصرى اللبنانى ثالثة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

" إن جاهداك " [١] ففيهما إيجاز بحذف الفعل ، والذى سوغ الحذف وجود قوله : (وصينا) .

وأما قوله تعالى : "إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" [٢] ، وقوله سبحانه : "ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" [٣] ، وقوله جل شأنه : "إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" [٤] وقوله تقدست أسماؤه : "ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" [٥] .

وقد اجتمعت الآيات فوق التشابه فى المفردات على تقديم الجار والمجرور سواء أكان التعبير بالضمير أم بالاسم الظاهر فى المجرور ، وما كان تقديم الجار والمجرور إلا للاهتمام بهذا الرجوع ، وإن شئت قلت : هو التخصيص .

والجار والمجرور يحمل بين طياته وعد ووعيد بإيفاء الوعد لمن قدم الحسنى ، والوعيد لمن حاد عن جانب الجادة ، ثم هى تؤذن بفظاعة المخالفة لأمر الله تعالى إذا ما أشرك معه مالا يخلق وإنما يخلق .

والمرجع إنما هو من باب الكناية عن علم الله تعالى بدقائق الأمور وما يترتب عليها من جزاء خير أو شر .

و (أنبئكم) ، و (ينبئكم) جاء اللفظ فيها فى غاية الحسن واللطافة ، فقد أغنى ذلك ذوى الألباب عن التصريح ، بل إن الاكتفاء به هكذا إيماء إلى النعيم المرتقب لهو أحلى وألطف " من أن يكون كشفاً ومصارحة ، إذ قد جاء على الإيماء

---

[١] الإكسير فى علم التفسير / ١٨٥ .

[٢] العنكبوت / ٨ .

[٣] لقمان / ١٥ .

[٤] المائدة / ١٠٥ .

[٥] الزمر / ٧ .

الذى عده السكاكى أحد أقسام الكناية [١] وكذلك الخطيب [٢] ، و أصحاب الشروح [٣] ، وبه قال المبرد من قبل [٤] ، وكذلك ابن جنى ، وقال ابن جنى معلقاً : " إن الألفاظ خدم للمعانى ولا شك أن المخدوم أشرف من الخادم [٥] .

هذا فى المعنى القريب بينما اللفظة نفسها قد توسطت اللوازم بين المكنى والمكنى عنه فى أن إثابة الطائعين من المسلمين لأبويهم من المشركين يلتزم معاقبة أبويهم من المشركين ، ومن ثم فكما أن الآية فيها إيماء،كذلك فيها تلويح ، والتلويح يكون إذا كانت الكناية " ذات مسافة بينها وبين المكنى عنها متباعدة لتوسط لوازم – ومن ثم حسنت التلويح بالإشارة إلى عذاب هؤلاء عن بعد [٦] – ، لتضافر النعم عليهم بخلق الله لهم أولاً ، ونعمه الكثيرة عليهم ، ومن نعمه أن وهب الأبوين أولاداً يقومون على طاعتهم ولا يتأففون من خدمتهم .

وكان حسن التلويح من حيث إن " الإنباء كناية عن إظهار الجزاء على الأعمال ، لأن الملازمة بين إظهار الشىء وبين العلم به ظاهرة " [٧] .

ومن أوجه التشابه أيضاً أن تم فى الآيات الكريمات " تغليب الخطاب على الغيبة ؛ لأن الخطاب أهم ، ولأنه أعرف " [٨] .

وجاءت الآيات أيضاً بضمير الجمع على الحقيقة من حيث إن الخطاب موجه للإنسان ولوالديه ، ومعلوم عند العرب أن أقل الجمع ثلاثة .

---

[١] مفتاح العلوم / ٤١١ .

[٢] الإيضاح / ٤٦٦ وما بعدها .

[٣] شروح التلخيص ٤ / ٢٧٠.

[٤] الكامل ١ / ٢٧ .

[٥] الخصائص ١ / ٢٢٠ – ت : محمد على النجار ، ط : عالم الكتب ، بيروت ، لبنان،ثالثة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م – .

[٦] ينظر مفتاح العلوم / ٤١١، والإيضاح / ٤٦٦ ، والشروح ٤ / ٢٧٠ .

[٧] ينظر الكشاف ٣ / ٤٧٩ ، وحاشية الشهاب ٧ / ١٣٧ ، والتحرير والتنوير ٢١ / ١٦١

[٨] ينظر التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٢ ، وروح المعانى ١١ / ٢٧ / ٨٧ .

وأما عن أوجه الاختلاف بين متشابه هذه الجمل ، أن جاءت آية سورة العنكبوت (جملة مستأنفة استئنافا بيانيا لزيادة تحقيق ما أشارت إليه مقدمة الآية من قوله : ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، لأن بقية الآية لما أذنت بفظاعة أمر الشرك وحذرت من طاعة المرء والديه فيه ، فكان ذلك مما يثير سؤالا في نفوس الأبناء أنهم

هل يعاملون الوالدين بالإساءة لأجل إشراكهما ؟

فأنبئوا أن عقابهما على الشرك مفوض إلى الله تعالى ، فهو الذي يجازي المحسنين والمسيئين

بينما الآية في سورة لقمان جاءت الجملة فيها معطوفة بـ (ثم) : " للتراخي الرتبي المفيد للاهتمام بما بعدها ، أي وعلاوة على ذلك كله إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون

وأما آية سورة المائدة فقد زيدت فيها كلمة (جميعا) عن نظيرتها في قوله تعالى إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون " ، ومن ثم جاءت الجملة متعلقة بما قبلها فيها " عذر للمهتدي ونذارة للضال ، وقدم المجرور للاهتمام بمتعلق هذا الرجوع ، وإلقاء المهابة في نفوس السامعين ، وأكد ضمير المخاطبين بقوله (جميعا) للتنصيص على العموم ، وأن ليس الكلام على التغليب ، والمراد : الإنباء بما كانوا يعملون " [٣] .

وكذلك قوله جل شأنه في سورة الزمر : " ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور " ، فإن الآية جاءت مترتبة على ما قبلها مبينة أن الله غني عن العالمين ، لأنه مع ما هم فيه من الكفر والعصيان إلا أنه أعد لهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/ ٢١٤ : ٢١٥ .

(٢) نفسه ٢١ / ١٩٦ .

(٣) نفسه ٧١/ ٧٩

الجزاء وكل سيلقى جزاءه ، كما إنها ذيلت بجملة " إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ " ولم تذيل بها جملة من قبل ، وقد جاءت هذه الجملة تعليلية لجملة " ينبئكم بما كنتم تعملون " [١] .

***

[١] ينظر الكشاف ٤ / ١١٠ و التحرير والتنوير ٢٣ / ٣٤١ .

المبحث الثالث

الله لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل

وأما قوله تعالى : "إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ" [١] وقوله : "وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ" [٢] فإن بينهما أوجه تشابه إذ إن كلتيهما جاءتا للإعلام بأن الله يعلم دقائق الأمور ، وأنه محاسب عليها .

وفى الآيتين توعد فى (أتينا) و (يأت بها الله) لأن من يأت بالشىء سيحاسب عليه ، وأن (يأت بها الله) فيها " الإتيان كناية عن التمكن منها وهو أيضاً كناية رمزية عن العلم بها " [٣]

ومن أوجه التشابه أيضاً بين الآيتين أن اتبعت جملة الشرط فى كلتيهما بجملة أخرى ، وإن جاءت فى الأولى على الفصل ، وفى الثانية على الوصل .

أما أوجه الاختلاف بين الآيتين فعلى الإجمال جاءت آية سورة لقمان على المضارع (تك) ؛ لأنه قيل : إنها إجابة عن سؤال الابن لوالده ، بينما فى سورة الأنبياء جاءت على الماضى (كان) وهو يدل على تحقق القدرة وكمالها وإحاطتها بالأشياء .

وفى سورة لقمان جاء التعبير بالاسم الظاهر (يأت بها الله) و (إن الله) بينما فى سورة الأنبياء جاء التعبير بالضمير (أتينا) و (كفى بنا) .

---

[١] لقمان / ١٦ .

[٢] الأنبياء / ٤٧ .

[٣] ينظر حاشية الشهاب ٧ / ١٣٧ ، والجامع لأحكام القرآن ١٤ /٦٦ ، والتحرير والتنوير ٢١ / ١٦٤ .

أما عن الأولى فلأنها إجابة لسؤال فاقتضت القصة إظهار الاسم ، لكن فى سورة الأنبياء عبر بالضمير ، لأن الآية جاءت على الحال بعد أن ذكر "فلا تظلم نفس شيئا" التى وقعت فى سياق النفى مما يؤكد عدم وقوع الظلم بإنقاص شىء استحقته النفس من خير .

وأما عن التفصيل فإن آية سورة لقمان نراها قد اشتملت على مسائل بلاغية عدة منها :

- اجتماع " ثلاثة مؤكدات : النداء ، وإن ، وضمير القصة [١] ، هذا إن كانت (مثقالُ) بالرفع ، أما إن كانت (مثقالَ) بالنصب ، كان الضمير للهنة من الإساءة أو الإحسان ، أى إن كانت مثلا فى الصغر والقماءة كحبة الخردل ، فكانت مع صغرها فى أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة ، أو حيث كانت فى العالم العلوى أو السفلى ، (يأت بها الله) يوم القيامة فيحاسب بها عاملها . [٢]

- وفى الآية أيضاً إيغال ، وذلك أنه سبحانه تم خفاء الهنة ، أو الخطيئة فى نفسها بخفاء مكانها من الصخرة ، والأخفى من الصخرة ، كأن تكون فى صخرة مستقرة فى أغوار الأرض السحيقة - ومعلوم أن الصخرة لا تكون إلا فى الأرض ومنه فى الشعر قول الخنساء . [٣]

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِى رَأْسِهِ نَارُ

فإن المعنى قد تم عند (علم) وجاء قولها : (فى رأسه نار) تتميم جميل للمبالغة فى شهرته للسارين والغادين ، فحسن المعنى وجمله .

---

[١] التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٢ .

[٢] الكشاف ٣ / ٤٨٠ .

[٣] ديوانها / ٤٩ ط : بيروت و ص/٩٢ فى المخطوطة الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم / ١٢٠ أدب ش .

وإن كان قد ذهب بعض من تعرضوا لهذه الآية على أن فيها (تتميم) [١] إلا أننا نرجح جانب الإيغال لاعتبارات الفروق بين التتميم والإيغال التى تعرض لها ابن أبى الإصبع المصرى والتى رجح فيها أن الإيغال يكون بعد تمام المعنى ويؤتى به للمبالغة بينما التتميم يكون عن نقص فى شئ ما [٢] .

- وقوله (فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ) عطف على صخرة مع أنها من أجزاء الأرض ، ووسط بينها وبين (أو فى الأرض) قوله (أو فى السماوات) فإن ذلك على معنى : " أو كانت أعز منالا من الصخرة " [٣]

- **ولعل سائلا يسأل : لم قال (فتكن فى صخرة) وذكر بعدها (أو فى الأرض) وفى ذكر صخرة غناء عن ذكر الأرض ؟**

وللجواب على ذلك نذكر ما قاله العلامة القرطبى : يمكن أن يقال : قوله (فتكن فى صخرة) تأكيد كقوله : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [٤] وقوله : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [٥] ، [٦] .

ومن المعلوم أن خلق الإنسان المتولد بين أب وأم لا يكون إلا من علق ، ومعلوم أيضاً أن السُّرَى لا يكون إلا ليلا ، وكان من الممكن أن تغنى (أسرى) عن (ليلا) لكنها جاءت للتوكيد ، وكذلك (صخرة) و (الأرض) فإن الصخرة جزء من الأرض ، وإنما ذكر ذلك – والله أعلم – ، لقصد تعميم الأمكنة [٧] هذا على قراءة ﴿فَتَكُنْ﴾ بضم الكاف وسكون النون – أما على القراءة الثانية (فَتَكِنَّ) بكسر الكاف

---

(١) ينظر الكشاف للزمخشرى (هامش) ٣ / ٤٨٠ ط: العلمية ، بيروت .
(٢) ينظر تحرير التحبير /٢٣٢ : ٢٤١ ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية والمصباح ٢٣٠ ط: الآداب بالقاهرة ، والإيضاح ٣٠٥ ، والطراز ٣ / ١٣١ ط : المقتطف ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م –
(٣) ينظر التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٣ .
(٤) العلق / ١ : ٢
(٥) الإسراء / ١
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٦٨
(٧) التحرير والتنوير ٢١/ ١٦٣

وتشديد النون – فإنها تقع جوابا عن سؤال سأله ابن لقمان لأبيه عن الحبة تقع فى مقل البحر [١] .

ويكن المعنى حينئذ : أى تغيب ، من وكن الطائر إذا دخل وَكْنَته بفتح الواو ، وضمها ، وسكون الكاف ، أو ضمها ، مع ضم الواو ، أى: (عشه) فهو استعارة أو مجاز مرسل كالمشفر [٢] .

– ومما حفلت به الآية من مسائل بلاغية ، أن قوله تعالى (فتكن فى صخرة) تم فيها تقديم الخاص وتأخير العام [٣] حيث ذكر الصخرة قبل السماوات والأرض

– وأما قوله (أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ) فإن ذكر السماوات يكون للمكانية أى سواء كانت الصخرة فى السماوات أو فى الأرض ، أو أن يكون ذكرها على سبيل المشاكلة لو قوعها فى صحبة الأرض . [٤]

ويمكن أن يكون معنى الكلام المبالغة والانتهاء فى التفهيم أى أن قدرته سبحانه تنال ما يكون .. فى السماء والأرض ، ويحتمل أن تكون السماوات إشارة إلى البعد وفى الأرض إشارة إلى الظلمة . [٥]

وأما جملة (إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) فقد تم فيها الفصل ولم توصل بما قبلها ، لأنها يجوز أن تكون من كلام لقمان فهى كالمقصد من المقدمة ، أو كالنتيجة من الدليل ، ولذلك فصلت ولم تعطف ؛ لأن النتيجة كبدل الاشتمال ... ويجوز أن تكون

---

[١] ينظر المحرر الوجيز ١٣ / ١٧ ، والجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٦٧ ، وروح المعانى ١١ / ٢١

[٢] ينظر ما قاله الشيخ عبد القاهر فى هذه المسالة فى أسرار البلاغة ٣٤ إلى ص ٤٢ ت : محمود شاكر ط : المدنى – ومفتاح العلوم / ٣٦٤ شرح نعيم زرزور ط : العلمية ، والإيضاح/ ٤٠٤ وما بعدها .

[٣] التفسير الكبير ٢٥ / ١٣٠ .

[٤] ينظر حاشية الشهاب ٧ / ١٣٧ وروح المعانى ١١ / ٢١ / ٨٨ .

[٥] ينظر البحر المحيط ٧ / ١٨٨ ، والمحرر الوجيز ١٣ / ١٧ ، والجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٦٨ .

معترضة بين كلام لقمان تعليما من الله للمسلمين ، وعلى الاعتراض تكون من كلام الله تعالى.[١]

وقد جاءت الجملة مناسبة لختم الآية ؛ لأن الذى يصل إلى خفايا هذه الأشياء وهى واقعة تحت تمام قدرته وسيطرته إذ هو الخبير العالم بخفايا الأشياء ، وعليه فتكون الجملة " علة مصححة للإتيان بها " [٢] .

- ثم الآية يمكن حملها على تأويلين :

إما أن يكون فيها بلاغة إيجاز ، وذلك فيما إذا كانت عن جواب عن سؤال مقدر من الابن لأبيه عن الحبة تقع فى سفل البحر يعلمها الله .

وقيل المعنى أنه أرد الأعمال - المعاصى والطاعات ، أى إن تك الحسنة أو الخطيئة مثقال حبة يأت بها الله ، أى لا تفوت الإنسان المقدر وقوعها منه ، وبهذا المعنى يتحصل فى الموعظة ترجية وتخويف ، مضاف ذلك ، أى يضاف إلى ذلك - تبيين قدرة الله تعالى . [٣]

هذا والآية جاءت غاية فى كمال الترتيب وبلاغة النسق ، وحسن النظم ، فقد بدأ فى الآية : " بما يتعقله السامع أولا وهو كينونة الشىء فى صخرة ، وهو ما صلب من الحجر وعسر الإخراج منه ، ثم اتبعه بالعالم العلوى وهو أغرب للسامع ، ثم اتبعه بما يكون من مقر الأشياء للشاهد وهو الأرض . [٤]

وأما المتشابه معها فى سورة الأنبياء فهى عبارة عن جملة شرطية جاءت عقيب الكلام عن استيفاء الحقوق يوم القيامة بإعطاء كل ذى حق حقه ، والبعد عن الظلم ، والمتحدث هو الله سبحانه وتعالى إخبارا ، وردعا ، وزجرا ؛ لأنه سبحانه

---

[١] التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٤

[٢] روح المعانى ١١ / ٢١ / ٨٩ .

[٣] ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٦٦ : ٦٧ وفتح القدير ٤ / ٢٣٨ .

[٤] روح المعانى ١١ / ٢١ / ٨٨ .

هو المتحدث فناسب فى الآية التحدث بـ (نا) الفاعلين فى (أتينا بها) جواب شرط ، وجاءت بعدها جملة (وكفى بنا حاسبين) جاءت فيها الباء فى (بنا) للتوكيد ، مثل قوله ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [١] و ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [٢] ففصل كما ترى بين الفعل وفاعله بالباء للتوكيد ، ويكون المعنى أنه سبحانه فاعل ذلك حال كونه فاعل الحساب.

هذا وقد جاءت (حاسبين) من (حسب) فقد تخير الثلاثى (حسب) الذى يفيد الحصر والعد عن (حَاسَبَ) الذى يفيد المساءلة ، وفى (حاسبين) كناية بإشارة إلى " تحذير من العذاب ، وترغيب فى الثواب . [٣]

أما عجز الآية فقد جاء على التمييز ، أو على الحال الذى يبين أنه لن يكون الظلم وإنما هو الإحصاء الدقيق الذى لا جور فيه ، ومن ثم صلح الوصل لاختلاف الجملتين خبرا وإنشاء فالأولى إنشائية لفظا خبرية معنى ، والثانية خبرية لفظا ومعنى ، من حيث إن مفعول (كفى) محذوف دل عليه قوله تعالى : (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) والتقدير : وكفى الناس نحن فى حال حسابهم [٤] ومن ثم ناسبت كل جملة ختمت بها-آية سورة لقمان ، وآية سورة الأنبياء-مقدمة الآية .

قوله تعالى : (أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ) .

التسلسل المنطقى لجملة الموعظة اقتضى الانتقال من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة [٥] ، وبدأ بالصلاة لأن فيها

---

[١] الفتح/ ٢٨ ، النساء / ٧٩ .

[٢] النساء ٨١ .

[٣] التحرير والتنوير ١٧ / ٨٧ .

[٤] نفسه ١٧ / ٨٦ : ٨٧ .

[٥] نفسه ٢١/ ١٦٤ .

تكميل للنفس [١] وقد ابتدأ بعظيم الطاعات وهى الصلاة ، والأمر بالمعروف والنـــهى عن المنكر ، وهو يريد أن يمتثل ذلك فى نفسه أولا على غرار قول الشاعر :

وَابْدأ بِنَفْسِكَ فَانْهَها عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَيْتَ فَأَنْتَ حَكِيمٌ [٢]

***

---

[١] روح المعانى ١١ / ٢١ / ٨٩ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٦٨ .

المبحث الرابع

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وأما قوله تعالى : " وأمر بالمعروف وانه عن المنكر " ففيها إيجاز قصر ، إذ هي كلمة جامعة من الحكمة والتقوى ، إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخير وبثه في الناس ، وكفه عن الشر وزجره الناس عن ارتكابه [١] " وشمل الأمر بالمعروف الإتيان بالأعمال الصالحة لها على وجه الإجمال ، كما شمل النهي عن المنكر اجتناب الأعمال السيئة كذلك . [٢]

وثنى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن فيه تكميلا للغير [٣] كما إن فيه لطيفة ألا وهي : أن الله تعالى قدم الكمال (الصلاة) على التكميل : (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) [٤] .

ومن المتشابه معها لكن بصيغة الجمع ، قوله تعالى : " وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ " [٥] وقوله سبحانه " تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ " [٦] وقوله جل شأنه : " وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ " [٧] وقوله جل شأنه في صفات المؤمنين : " يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ " [٨] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢١ / ١٥٦ .

(٢) نفسه ٢١ / ١٥٦ .

(٣) روح المعاني ١١ / ٢١ / ٨٩ .

(٤) التفسير الكبير ٢٥ / ١٣١ .

(٥) آل عمران/ ١٠٤ .

(٦) آل عمران/ ١١٠ .

(٧) آل عمران/ ١١٤ .

(٨) التوبة/ ٧١ .

فقد وقع التشابه كما ترى مع هذه الآيات ، غير أن آية سورة آل عمران جاءت بلاغة المتشابه فيها : " من باب عطف الخاص على العام إيذانا بمزيد فضلهما على سائر الخيرات " [١] وقال الطوفى عن هذا النوع من العطف : " وفائدة هذا التنبيه على تأكيد بيان المعطوف الخاص وأفضليته لاختصاصه بفضيلة أو ترتب مصلحة ونحو ذلك . [٢] ويقول الخطيب : " بذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله ، حتى كأنه ليس من جنسه ، تنزيلا للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الذات . [٣]

والآية أيضاً واقع فيها إيجاز بالحذف ، حيث " حذف المفعول الصريح من الأفعال الثلاثة إما للإعلام بظهوره ، أى يدعون الناس ولو غير مكلفين ويأمرونهم وينهونهم ، وإما للقصد إلى إيجاد نفس الفعل على حد : فلانا يعطى . [٤]

والآيات كلها المذكورة فى سورة آل عمران جاءت لتميز الأمة الإسلامية ، وتبين أن من صفات المؤمنين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وكذلك الآية فى سورة التوبة : " يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ " فإنها جاءت فى مقابلة صفات المنافقين وبيان أنهم " يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف "

ويجمع هذه الآيات الإجماع على تحلى أهل الإيمان بصفات الخير وأمرهم لغيرهم بذلك .

وتختلف آية سورة لقمان عن الآيات فى سورة آل عمران ، والتوبة ، فى أنها جاءت على الإنشاء بينما فى بقية الآيات جاءت على الخبر ، وفى سورة لقمان جاء

---

[١] روح المعانى ٢ / ٤ / ٢١ -

[٢] الإكسير فى علم التفسير ٢٥٦- ت : د/ عبد القادر حسين – ط: الآداب بمصر – .

[٣] الإيضاح/ ٣٠٣ -

[٤] روح المعانى ٢ / ٤ / ٢١ -

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من عطف الجمل ، بعضها على بعض مع حذف للفاعل والمفعول . والإبقاء على المتعلق بالجملة (بالمعروف) و (عن المنكر) [١]

ثم إن قال قائل : قدم لقمان فى وصيته لابنه الأمر بالمعروف على النهى عن المنكر ، وقبل قدم النهى عن المنكر (لا تشرك) على الأمر بالمعروف (أقم الصلاة) ؟

وللإجابة على هذا التساؤل نورد ما ذكره العلامة فخر الدين الرازى ، يقول الرازى عن لقمان : " هو كان يعلم من ابنه أنه معترف بوجود الله فما أمره بهذا المعروف ، ونهاه عن المنكر الذى يترتب على هذا المعروف ، فإن المشرك بالله لا يكون نافيا لله فى الاعتقاد وإن كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف فى مقابلته

منكر والمعروف فى معرفة الله اعتقاد وجوده ، والمنكر اعتقاد وجود غيره معه فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لأنه ورد فى التفسير أن ابنه كان مشركا فوعظه ولم يزل يعظه حتى أسلم ، وأما ههنا فأمره أمرا مطلقا والمعروف مقدم على المنكر . [٢]

---

[١] ينظر إعراب القرآن لمحيى الدين الدرويش ٧ / ٥٤٣ .

[٢] التفسير الكبير ٢٥ / ١٣٠ / ١٣١ .

المبحث الخامس

الصبر على الأذى والعزيمة أى الأمر

أما قوله تعالى : " وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ "

الصبر سبب الفوز ، وهو معين على التحلى بمحامد ، والتخلى عن المذمات ، وهو الدواء الذى به الصلاح .

وآية سورة لقمان تتشابه مع أكثر من ألف وسبعين موضعا فى القرآن الكريم جاء فيها الأمر بالصبر ، والأخذ به عدة للاستعانة على عزائم الأمور .

غير أن سورة لقمان جاءت آية الصبر فيها متفردة بمسائل بلاغية ، وذلك لارتباطها بما قبلها من مجموعة المواعظ التى أمر بها لقمان ولده ، وقد جاء الصبر " عقيب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – وأن على القائم بهذا الأمر– ملازمة الصبر – وذلك أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد يجران للقائم بهما معاداة من بعض الناس ، أو أذى من بعض فإذا لم يصبر على ما يصيبه من جراء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أوشك أن يتركهما ؛ [1] لأن الطاعات فيها مشقة "وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ" [2] هذا بخلاف الأذى من الغير [3] وفى الآية دعوة إلى الثبات وصدق العزيمة ، حيث إن الأمر " يقتضى حضا على تغيير المنكر ضرر فهو إشعار بأن المغير يؤذى أحياناً " [4]

مع الأخذ فى الاعتبار أن ذلك على سبيل الندب حتى لا يحمل الكلام على غير وجهه .

---

[1] التحرير والتنوير ٢١ / ١٥٦ .

[2] البقرة/ ٤٥ .

[3] ينظر روح المعانى ١١ / ٢١ / ٨٩ .

[4] الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٦٨ .

وأما قوله تعالى في سورة لقمان : " إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ " فإنه يتشابه مع قوله تعالى في سورة الشورى : " إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ "[1] ومن الملاحظ أن الخبر جاء في آية سورة الشورى مؤكدا بـ (اللام) ، ومن هنا حق للسائل أن يسأل عما اقتضى توكيد الخبر باللام في آية سورة الشورى وترك ذلك في آية سورة لقمان؟

ويجيبنا الخطيب الإسكافي عن هذا السؤال فيقول :

" إن ما رغب الله تعالى فيه عبده من الصبر على ما آلم قلبه من جناية جان عليه حتى يغفر لمن ظلمه ويهب له من القصاص حقه ترغيب فيما يشق على الإنسان فعله ، إلا أن الله تعالى حسنه بما وعد من عفا عما يجب له من الأجر الذى ضمنه .

ففيه مع جزيل الثواب إصلاح ما بين عشيرته وعشيرة الجانى عليه بإطفاء الثائرة عنهما ، إذا كان هذا من أصعب ما يتحمله الإنسان وجب من توكيد الكلام منه مالا يجب في غيره ، فأدخلت اللام على (من عزم الأمور) على معنى أنه من الأمور التى تحتاج إلى توطين النفس عليها ، وتخير أرفعها وأعلاها وليس كذلك ما في سورة لقمان ؛ لأنه قال (واصبر على ما أصابك) وليس يختص صبرا على ظلم يلحقه فيرغب في العفو عن الظالم ، بل تكون شدائد لا يهيج النفوس الانتصار فيها ولا تدعوا دواعى إلى الانتقام لها من الرزايا في الأنفس والأموال وما يكون من قبل الله تعالى مما تعبدنا فيه بالصبر وليس لنا غيره ..

فأما الموضع الذى أبيح فيه الانتصاف ، فالصبر فيه أحق ، وكظم الغيظ معه أشد ، والكلام فيه إلى التوكيد أحوج ، ألا ترى أن صبر من قتل بعض أعزته رغبة فيما وعده الله من مثوبته ليس كصبر من مات له بعض أحبته .

---

[1] الشورى بعض الآية/ ٤٣ .

فافتقر المكان الأول من تقوية الكلام فيما ينبه على الأصل إلى ما لم يحتج إليه المكان الأخر .[١]

لكن الآيتين تتشابهان فى أوجه نظم عدة منها :

(إن ذلك) فى سورة لقمان إشارة إلى إقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر على المصيبة . [٢]

وفى سورة الشورى يعود اسم الإشارة إلى : المذكور من الصبر والمغفرة . [٣]

وقد خصت الأمور السابقة فى سورة لقمان ؛ لأنها أمهات العبادات وعماد الخير كله . [٤] "

وأما فى سورة الشورى : "اهتماما به وزيادة ترغيب فيه" [٥]

هذا ولأن الصبر من مكارم الأخلاق وصاحبه يجزل له الأجر بغير حساب ناسبه " إفراد اسم الإشارة – فى الآيتين – وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلته فى الفضل ، أو الإشارة إلى الصبر ، أو إلى سائر ما أمر به " [٦] .

و (عزم الأمور) العزم مصدر ، واحتمل أن يراد به المفعول ، أى من معزوم الأمور ، واحتمل أن يراد به الفاعل ، أى عازم الأمور من عزم الأمر أى جد فعزم الأمور من باب الإسناد المجازى كـ (مكر الليل) [٧] .

---

[١] درة التنزيل وغرة التأويل/ ٤٢٧ : ٤٢٨ وكشف المعانى/ ٣٣١ ، وفتح الرحمن/ ٥٠٩ : ٥١٠ وملاك التأويل ٢ / ٧٩٠ : ٧٩١ وبصائر ذوى التمييز ١ / ٤١٩ : ٤٢٠ .

[٢] فتح القدير ٤ / ٢٣٩ .

[٣] روح المعانى ١٣ / ٢٥ / ٤٨ .

[٤] فتح القدير ٤ / ٢٣٩ .

[٥] روح المعانى ١٣ / ٢٥ / ٤٨ ، والتحرير والتنوير ٢١ / ١٦٦ .

[٦] روح المعانى ١١ / ٢١ / ٨٩ .

[٧] روح المعانى ١١/ ٢١ / ٩٠ و حاشية الشهاب ١٣٧/٧ ، والبحر المحيط ٨ / ٤١٥– ط : دار الفكر طبعة بعناية الشيخ عرفات العشا حسونه ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

وفى الآيتين حسن موقع (إن) إذ إن الجملة الثانية (إن ذلك من عزم الأمور) مرتبطة بالكلام السابق ، وكان من الممكن وضع (الفاء) بدلا من (إن) ولكن هذا لا يحسن " فليس سواء دخولها وأن لا تدخل ، أنك ترى الجملة التى هى دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتتحد به "

حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغاً واحدا ، وكأن أحدهما قد سبك فى الأخر ، ومثله من الشعر قول بشار :

بَكِّرَا صَاحِبَّى قَبْلَ الهَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِى التَّبْكِيرِ [١]

وأما قوله تعالى : " وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ "

وقرئ : تصاعِرْ ، و يجوز فى العربية تُصْعِر ... فأما تُصَعِّر فعلى وجه المبالغة"[٢]

والآية فيها استعارة مكنية ، حيث شبه المتكبر بالجمل الذى أمال عنقه إلى جانب ليعرض عن جانب أخر ، وهو فى الأصل : " مشتق من الصعر بالتحريك لداء يصيب البعير فيلوى منه عنقه ، فكأنه صيغ له صيغة تكلف ، بمعنى تكلف إظهار الصعر ، وهو تمثيل للاحتقار ، لأن مصاعرة الخد هيئة المحتقر المستخف فى غالب الأحوال . [٣]

وكما يستعار الصعر للتكبر ، فإنه قيل : نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة فيلوى عنقه ، والأول أوفق ، وهذا ما مال إليه ابن عباس – رضى الله عنهما – وأنشدوا :

---

[١] ينظر دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى/ ٢٧٢ : ٣١٦ –ت : محمود محمد شاكر ط: المدنى ١٩٨٤م .

[٢] معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٤ / ١٩٨ – ط: عالم الكتب بيروت لبنان – .

[٣] التحرير والتنوير ٢١/١٦٦ .

وَكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَقَمْنَا مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمَا[١]

وهذا الجزء من الموعظة فى الآية الكريمة تفردت به هـذه الآيـة فلـم نجـد متشابها له فى الذكر الحكيم .

بينما الموعظة التالية نجد لها متشابها بنصها وفصها ، إذ يقول العلـى القديـر سبحانه فى سورة لقمان متمما ما سبق : "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا" [٢]وفى سـورة الإسراء يقول سبحانه "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا" [٣] .

****

(١) ينظر روح المعانى ١١ / ٢١ / ٩٠،والجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٧١ وحاشية الشهاب ١٣٧/٧ .

(٢) لقمان بعض الآية / ١٨ .

(٣) الإسراء بعض الآية /٣٧ .

المبحث السادس

النهى عن التكبر والخيلاء

أما فى قوله تعالى : "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا" [١] فقد ذهب الطاهر بن عاشور إلى أنه : " تمثيل كنائى عن النهى عن التكبر ، والتفاخر لا عن خصوص المشى فى حال المرح فيشمل الفخر عليهم بالكلام وغيره " [٢]

وذلك أنه سبحانه وتعالى بين أن لقمان بعد أن أوصى ولده ونهاه عن " الخلق الذميم أمره بالخلق الكريم " [٣] وأن الخطاب فى آية سورة لقمان موجه إلى ابن لقمان فهو خطاب لمعين .

وأما فى سورة الإسراء فإنه قد جاء " الخطاب لغير معين ليعم كل مخاطب وليس خطابا للنبى - ﷺ - إذ لا يناسب ما بعده ، والذى صرف النص عن أن يوجه إلى رسول الله - ﷺ - جملة (إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ) جاءت على سبيل التهكم ، أى أنك أيها الماشى مرحا لا تخرق بمشيتك أديم الأرض ، ولا تبلغ بتطاولك فى مشيك طول الجبال ، والكلام مستعمل فى التغليظ .. والمقصود من التهكم التشنيع بهذا الفعل. [٤] وهذا ليس من فعل النبى - ﷺ - ولا يكون .

وهذا وجه الخلاف بين النهى عن مشى بخيلاء وتكبر بين السورتين ، بينما قد اجتمعا فى أن عبر بـ (مرحا) وأنه - مصدر وقع حالا من ضمير (تمشى) ومجىء المصدر حالا كمجيئه صفة يراد منه المبالغة فى الاتصاف .. ويجوز أن يكون مرحا مفعولا مطلقا مبنيا لفعل (تمشى) لأن للمشى أنواعا .. وإسناد المرح إلى المشى مجاز عقلى . [٥]

---

[١] لقمان بعض الآية / ١٨ .

[٢] التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٦ / ١٦٧ .

[٣] البحر المحيط ٧ / ١٨٨ .

[٤] ينظر التحرير والتنوير ٧ / ١٥ / ١٠٤ .

[٥] نفسه ٧ / ١٥ / ١٠٣ .

كما أن هناك المتشابه معهما فى دلالة الفحوى ، وذلك فيما ذكر الفخر الرازى عن الزجاج فى معنى الآية السابقة : "لا تمش فى الأرض مختالا فخورا " ، ونظيره قوله تعالى فى سورة الفرقان : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [١] وقال فى سورة لقمان ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [٢] وقال فى سورة لقمان ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا . . . الخ﴾ [٣] ، [٤] .

وأما قوله تعالى : "إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ" [٥] فإنها تتشابه مع قوله جل شأنه : "وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ" [٦] وقريب منها قوله سبحانه "إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا" [٧] .

بيد أن آية سورة لقمان والنساء جاءتا على الفصل بينما جاءت آية سورة الحديد ، على الوصل بالواو ، وقيمته أنها جاءت على سبيل التحذير من الفرح الواقع فى سياق تعليل الأخبار فإن كل ما ينال المرء ثابت فى كتاب . [٨]

والفصل جاء فى آية سورة النساء ، لأنها تذييل لجملة الأمر بالإحسان ، لأن من اتصف بالخيلاء والفخر كانا سببين فى منع الإحسان ، والاتصاف بأخلاقه ، وفيها تعريض بأخلاق الذين اتصفوا بهذه الصفات . [٩]

---

[١] الفرقان/ ٦٣ .
[٢] لقمان/ ١٩ .
[٣] لقمان/ ١٨ .
[٤] مفاتيح الغيب ٢٠ / ١٦٩ .
[٥] لقمان/ ١٨ .
[٦] الحديد /٢٣ .
[٧] النساء/ ٣٦ .
[٨] التحرير والتنوير ١٣ / ٢٧ / ٤١٢ .
[٩] التحرير والتنوير ٣ / ٥ / ٥٠ : ٥١ .

ومن هنا كان التعبير بـ (كان مختالا فخورا) أى ضده ذلك ، عبد أن يتصف بمحاسن الأخلاق ، وأن يتحلى بمؤهلات العشرة الطيبة مع أهله وجيرانه فى حله وترحاله .

لكنّ الآيتين فى سورتى لقمان والحديد عبر فيهما بكلمة (كل) التى جاءت مفعولا للفعل المنفى (لا يحب) ومعلوم أن (كل) تفيد العموم والشمول فيما إذا قدمت فى أول الكلام من مثل : " كل ما يتمنى المرء لا يدركه ، وكل رأى الفتى لا يدعو إلى رشد [١] بينما (كل) هنا فى الآيتين قد وقعت فى حيز النفى و إنك إذا أدخلت كلا فى حيز النفى ، وذلك بأن تقدم النفى عليه لفظا أو تقديرا ، فالمعنى على نفى الشمول دون نفى الفعل والوصف نفسه [٢]

وبناء على ما يراه الشيخ عبد القاهر والجمهور معه فى أن وقوع كل فى حيز النفى لا يفيد العموم والشمول ، فإن معنى الآية حينئذ أن ليس كل مختال فخور مبغوضا عند الله تعالى ، وإنما بعضهم يحبه الله ، هذا إن صح فى هذا الموطن من حب الله للماشى خيلاء وكبرا فى الجهاد ليرى الأعداء منه قوة ، ويؤيده ما روى أن عمر بن الخطاب رأى غلاما يتبختر فى مشيته فقال : " إن البخترة مشية تكره إلا فى سبيل الله " يعنى لأنها يرهب بها العدو إظهارا للقوة على إعلاء الدين فى الجهاد " [٣] .

فصح أن لو وقعت كل من سياق النفى بناء على ما سبق من خبر عمر فإنها لا تعم ، لكن هذا ليس على اطراد ، وإننا لنرى أن الشيخ / عبد القاهر عمم فى هذه المسألة وكان الأولى به أن يقول غالبا .

والذى دفعنا إلى مطالبة الشيخ عبد القاهر بذلك أن هناك من الشواهد القرآنية التى وقعت فيها (كل) فى سياق النفى ، ولو طبقنا عليها ما ارتآه عبد القاهر لأتت

---

[١] ينظر دلائل الإعجاز/ ٢٨٤ .

[٢] نفسه/ ٢٨٤ : ٢٨٥ ، والإيضاح ١٤٩، وشروح التلخيص ٤ / ٤٢٧ .

[٣] التحرير والتنوير ٧ / ١٥ / ١٠٤ .

بمعنى غير المراد ، وذلك مثل قوله تعالى : "واللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ" [١] وقوله تعالى : "وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ" [٢] .

وإن كان الشيخ سعد الدين التفتازانى قد ضم إلى الآيتين السابقتين قوله تعالى : "وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ" [٣] فإننا لا نوافقه لوقوع الخيلاء واستحسانه فى الجهاد ، وما روى رحم الله رجلا أراهم من نفسه قوة ، وما ورد ان الله يبغض هذه المشية إلا فى مثل هذا الموطن .

أما عن قوله سبحانه {إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} فى سورة لقمان فإنك ترى أن الجملة جاءت مفصولة ولم توصل بما قبلها ؛ لاختلاف الجملتين خبرا وإنشاء ، وقد جاءت على أنها إما من كلام لقمان ، أو من كلام الله تعالى جاءت معترضة بين كلام لقمان تعليما من الله للمسلمين " [٤] .

ويرى الزمخشرى أن الآية فيها لف ونشر معكوس حيث قال : المختال مقابل للماشى مرحا ، وكذلك الفخور للمصعر خده كبرا ، وذلك لرعاية الفواصل [٥] وجوز أن يكون هناك لف ونشر مرتب ، فإن الاختيال يناسب الكبر والعجب ، وكذلك الفخر يناسب المشى مرحا ، والكلام على رفع الإيجاب الكلى ، والمراد السلب الكلى .

وجوز أن يبقى على ظاهره . [٦]

---

[١] البقرة / ٢٧٦ .

[٢] القلم / ١٠ .

[٣] الحديد/ ٢٣ ، وينظر ما كتبه سعد الدين فى شروح التخليص ٤ / ٤٤١ : ٤٤٢ والمطول ص/١٢٥ .

[٤] التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٧ .

[٥] الكشاف ٣ / ٤٨٢ ، وروح المعانى ١١ / ٢١ / ٩٠ .

[٦] روح المعانى ١١ / ٢١ / ٩٠ ، وحاشية الشهاب ٧ / ١٣٨ .

المبحث السابع

من خصائص النظم فى هذه الآيات

من خصائص النظم في هذه الآيات أن أغلب الجمل جاء على الفصل ومن ذلك : " إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " و " إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ " و " إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ " و " إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ "

أما قوله تعالى : " واقْصِدْ فِي مَشْيِكَ " فإنه يتشابه مع قوله تعالى : " وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا " [١] وقوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [٢] وقد سبق الحديث عنها : لكن الملاحظ أنه جل شأنه وتعالى ذكره استخدم فى النظم (مشى) أحد أنواع المشى – السعى ، العدو ، الهرولة ... الخ – والمشى أدون هذه الأنواع ، ومع هذا نجد أمر المولى سبحانه فيه بالقصد على خلاف الطاعات فإنه أمر فيها بالإسراع : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [٣] فإن السعى : " المشى السريع ، وهو دون العدو ويستعمل للجد فى الأمر خيرا كان أو شرا " [٤]

فإذا ما كان الضرب فى الأرض وابتغاء فضل الله فالمطلوب التوسط والطمأنينة فما قدر لك فلن يفوتك : " فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه " [٥]

ويمكن حمل (اقصد فى مشيك : على أنها : إشارة إلى الأفعال ، واغضض من صوتك إشارة إلى الأقوال فنبه على التوسط فى الأفعال ، وعلى الإقلال من فضول الكلام) [٦]

---

[١] الإسراء /٣٧ ، ولقمان / ١٨ .
[٢] الفرقان / ٦٣ .
[٣] الجمعة/ ٩ .
[٤] مفردات الراغب / ٦١ (سعى) – ضبط إبراهيم شمس الدين ، نشر دار الكتب العلمية ، أولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م – .
[٥] الملك / ١٥ .
[٦] البحر المحيط ٧ / ١٧٩ .

أو على القصد فى المشى والمقصود به : " أن لا يتخرق فى إسراع ولا يوانى فى إبطاء وتضاؤل على ما قال القائل . [١]

كلنا نمشى رويد كلنا نطلب صيد غير عمرو بن عبيد

ولا يضاده قوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [٢] لأن المقصود أنهم يمشون مشيا فيه سكينة ووقار ، وليس المراد مشية المريض المتماوت ، وقد أنكر عمر - ﷺ - على من يمشى كذلك ، وأيضاً السيدة عائشة - رضى الله عنها .

وقد صرف بعضهم كلمة (مشية) إلى التعامل بالحسنى مع الناس [٣] ، وهو من مكارم الأخلاق والتخلق به مظهر من مظاهر التخلق بالرحمة المناسبة لعباد الرحمن لأن الرحمة ضد الشدة ، فالهون يناسب ماهيتها . [٤]

وقال - ﷺ - : " سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن " وأما من قال أن النبى - ﷺ - كان إذا مشى أسرع ، وقول عائشة - رضى الله عنها ، فى عمر - ﷺ - أنه كان إذا تكلم أسمع ، وإذا أطعم أشبع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا مشى أسرع ، فإنما يحمل ذلك على " السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت " [٥]

وأما قوله تعالى : " وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ " فإنه شبيه به قول الله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ " وقوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أصواتهم عند رسول الله " [٦]

---

[١] المحرر الوجيز ١٣ / ١٩ .

[٢] الفرقان / ٦٣ .

[٣] ينظر أساس البلاغة للزمخشرى(مشى) .

[٤] ينظر تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣٢٤ ، وروح المعانى ١٩ / ٤٤ ، والتفسير القرآنى لعبد الكريم الخطيب ١٩ / ٥٥ ، والتحرير والتنوير ١٩ / ٦٨ .

[٥] ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٧١ ، وفتح القدير ٤ / ٢٣٩ .

[٦] الحجرات/ ٢ : ٣ .

ففى قوله : " وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ " جئ بـ (من) الدالة على التبعيض لإفادة أنه يغض بعضه أى بعض جهرة ، أى ينقص من جهورته ، ولكنه لا يبلغ به إلى التخافت والسرار" [١]

وهناك من ذهب إلى أن (من) زائدة ، والمراد خفض صوتك ، ولا نراه كذلك إذ القرآن المحكم كل حرف فيه جاء فى موضعه والقرآن يفسر بعضه بعضا إذ جاء فى موطن آخر فطلب من المتكلم الاعتدال فى الصوت فقال : " وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا " [٢] فجعل الأمر قصدا .

وأما فى آية سورة الحجرات والتى تم فيها النهى عن رفع الصوت فوق صوت النبى فإن هذا من باب آداب السلوك ، وما يجب أن يكون عليه الصحابة – رضى الله عنهم – مع رسول الله – ﷺ – ومن ثم جمعت الآية بين وجازة اللفظ وبلاغة التعبير ، وجمال التصوير ، فقد عبر بـ (لا ترفعوا) فالرفع مستعار لجهر الصوت جهرا متجاوزا المعتاد من الكلام ، شبه جهر الصوت بإعلاء الجسم فى أنه أشد بلوغا إلى الأسماع كما أن إعلاء الجسم أوضح له فى الأبصار على طريقة الاستعارة المكنية .

أو شبه إلقاء الكلام بجهر قوى بإلقائه من مكان مرتفع كالمئذنة على طريقة الاستعارة التبعية ، و (فوق صوت النبى) ترشيح للاستعارة . [٣]وقوله سبحانه بعده : " وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ " فإن النهى عن الجهر والتشبيه الموضح بمقدار هذا الجهر وصورته قد هيأ للآية التالية : " إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ " [٥] فإن الآية جاءت على الاستعارة

---

[١] التحرير والتنوير ٢١ / ١٩٨ .

[٢] الإسراء / ١١٠ .

[٣] التحرير والتنوير ٢٦ / ٢١٩ .

[٥] الحجرات / ٣ .

إذ إن الغض ، حقيقته خفض العين (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) [١] ، (وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) [٢] أى أن لا يحدق بها إلى الشخص ، وهو هنا مستعار لخفض الصوت والميل إلى الإسرار [٣] .

وأما قوله تعالى : " إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ " جملة جاءت على الفصل ولم توصل بما قبلها لاختلاف الجملتين فى الخبرية والإنشائية ، وهى " تعليل علل به الأمر بالغض من صوته باعتبارها متضمنة تشبيها بليغا ؛ لأن صوت الحمير أنكر الأصوات ، ورفع الصوت فى الكلام يشبه نهيق الحمار فله حظ من النكارة " [٤]

وخص الحمار لأنه مثل فى الذم البليغ والشتيمة . [٥] ولأنه إذا أطلق على غير مسماه الحقيقى إنما يطلق عليه على طريق الذم البليغ والشتيمة تشبيها له بأصل مسماه فى أخس أوصافه وهى البلادة ، والعراء من خواص الآدمية فكان جار مجرى المثل السائر الذى يضرب فى مقام الذم والتهجين . [٦]

والعرب كانت تأنف من ركوب الحمير ، وقد ذكر أن أحدهم قال فى ذمه : بئس المطية الحمار إن وقفته أدلى ، وإن تركته ولى ، كثير الروث ، قليل الغوث ، سريع إلى الفرارة بطئ فى الغارة ، لا توقى به الدماء ، ولا تمهر به النساء ، ولا يحلب فى الإناء [٧] .

---

[١] النور / ٣٠ .

[٢] النور / ٣١ .

[٣] التحرير والتنوير ١٢ / ٢٦ / ٢٢٣ .

[٤] التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٨، والكشاف ٣ / ٤٨٣ .

[٥] البحر المحيط ٧ / ١٨٩ ، وروح المعانى ١١ / ٢١ / ٩١ .

[٦] حاشية محيى الدين شيخ زيادة ٤ / ٣٨ .

[٧] إعراب القرآن للدرويش ٧ / ٥٤٩ .

وفى هذه الآية : لم يؤت بأداة التشبيه بل أخرج مخرج الاستعارة ، وهذه أقصى مبالغة فى الذم والتنفير عن رفع الصوت " [١]

ويقول ابن عطية : " ثم عارض ممثلا بصوت الحمار على جهة التشبيه ، أى تلك هى التى بعدت عن الغض فهى أنكر الأصوات فكذلك كل ما بعد عن الغض من أصوات البشر فهو فى طريق تلك ، وفى الحديث (إذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً ، ومن الملاحظ أنه استعمل أفعل التفضيل (أنكر) لأنها عبارة تجمع المذام اللاحقة للصوت الجهير ، وكانت العرب تفتخر بجهارة الصوت الجهير على خلق الجاهلية ومنه قول الشاعر يمدح آخر [٢]

جَهير الكَلام جَهير العطَاس ... جَهير الرِّواء جَهير النَّعَم
وَيَعْدُو عَلَى الأَيْنِ عَدْوَ الظَّلِيم ... وَيَعْلُو الرِّجَال بِخُلُقٍ عَمِم

ولعل سائلا يسأل : وما وجه الشبه بين رفع الأصوات ، وصوت الحمير ؟

وللإجابة على ذلك نورد ما قاله محمود شكرى الألوسى ، يقول : " بين الله عز وجل أن مثلهم فى رفع أصواتهم مثل الحمير ، وأن مثل أصواتهم التى يرفعونها مثل نهاقها فى الشدة مع القبح الموحش ، وهذا الذى يليق أن يجعل وجه شبه لا الخلو عن ذكر الله " [٣] .

وقد جاء بـ (اللام) فى (لصوت) : " للتأكيد " [٤]

لكن الشهاب له رأى له وجاهته فى بيان السر البلاغى فى هذه الآية الكريمة فقد ذكر عند تعرضه لمعناها رأى الغير أولا فقال ، " ترك المشبه ، وأداة التشبيه ووجهه

---

[١] البحر المحيط ٧ / ١٨٩ ، وروح المعانى ١١ / ٢١ / ٩٢ .
[٢] ينظر المحرر الوجيز ١٣ / ١٩ ، والجامع لأحكام القرآن الكريم ١٤ / ٧٢ .
[٣] روح المعانى ١١ / ٢١ / ٩٢ .
[٤] فتح القدير ٤ / ٢٤٠ .

وأخرج مخرج الاستعارة المصرحة (استعارة تصريحيـــة) [١] التمثيليـــة .. فجعلـــه استعارة وحمله على ظاهره ، وقال بعض أهل العصر أنه طوى المشبه علـــى ســـنن الاستعارة ، وليس استعارة فإن المشبه لم يعرض عنه بالكلية ؛ لأنه وإن لـــم يكـــن مقدراً منوى مراد على نهج قوله (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ) [٢] ولذا قـــالوا مخرج الاستعارة دون أن يقولوا استعارة [٣] .

- ثم يعقب الشهاب على الكلام السابق فيقول :-

هذا محصل ما أطال به من غير طائل فإنه لا مانع من حمله على ظاهره ، بجعـــل صوت الحمير استعارة لصياح الإنسان ، والجامع بينهما الشدة مع القبح الموحش.[٤]

وأتى بالتمثيل مؤكدا بـــ (إن) أولا ، وعزز هذا التأكيد بـــ (اللام) فصار الكـــلام خبرا إنكاريا ، كأن التمثيل أمر مبتوت فيه لا يتطرق إليه الشك [٥] .

---

[١] إعراب القرآن ٧ / ٥٤٩ .

[٢] فاطر / ١٢ .

[٣] حاشية محيى الدين شيخ زاده ٤٥ / ٣٨ .

[٤] حاشية الشهاب ٧ / ١٣٨ .

[٥] إعراب القرآن ٧ / ٥٤٦ .

المبحث الثامن

سؤال وجواب حول الإفراد والجمع فى صوت الحمير

ولعل سائلاً يسأل :

لم أفرد (صوت) ولم جمع (الحمير) ولم يقل (صوت الحمار) بإفراد كل أو (أصوات الحمير) بجمع كل ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول – وبالله التوفيق – :

هذه الآية فيها قراءتان :-

الأولى : قراءة ابن أبى عبلة : أنكر الأصوات أصوات الحمير ، بالجمع فى الثانى.[١]

الثانية : قراءة حفص التى بين أيدينا ونرى فيها ملحظين .

الملحظ الأول : نحوى :- (الحمير) معرفة بلام الجنس ، والمعرف بلام الجنس يستوى مفرده وجمعه ، ولذلك يقال : إن لام الجنس إذا دخلت على جمع أبطلت منه معنى الجمعية .

وقيل : أراد بالصوت اسم الجنس ولذا جاء مفردا .[٢] ويتفرع منه سؤال آخر مفاده : لم ذكر (الحمير) هنا فى الآية والعرب كانت تتقبح ذلك وتعتبره مثلا فى الذم ، فلا يصرحون ،باسمه لاستقذاره ، و إن أرادوا التحدث عنه يكنون فيقولون " طويل الأذنين"[٣] ؟

---

[١] المحرر الوجيز ١٣ / ١٩ .

[٢] المحرر الوجيز ١٣ / ١٩ .

[٣] ينظر حاشية الشهاب ٧ / ١٣٧ وروح المعانى ١١ / ٢١ / ٩١ .

والإجابة على هذا السؤال نقول :-

" إنما صرح به هنا ، لأن بعض ما يقبح فى مقام يحسن فى آخر ولما كان هـذا مقام الذم ، والمذموم لا يوقر كان الذكر هنا مستحسنا ، وهذا مما ذكره أهل البلاغة لأن التصريح أبلغ [١] .

ومثله ما صرح به المصطفى -ﷺ- باسم النكاح المستقبح ذكره ولم يكن لما اقتضى الأمر ذلك عند إرادة رجم الزانى [٢]

ثمت أمر يلح علينا : أى علاقة بين القصد فى المشى وغض الصوت ؟ قال العلامة الرازى فى هذه المسألة .

" وفى كلام الله من الفوائد ما لايحصره حد ، ولايصيبه عد ، ولا يعلمه أحد ، والذى يظهر وجوه "

الأول : هو أن الإنسان لما كان شريفا تكون مطالبه شريفة ، فيكون فواتها خطرا فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشى فإن عجز عن إدراك مقصوده ينادى مطلوبه.

الثانى : أن الإنسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات ، فإنه حركة وسكون ، وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره ، وعزم بالقلب وهو لا إطلاع عليه إلا لله ، وقد أشار إليه بقوله ، (إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ) أى أصلح ضميرك فإن الله خبير.

بقى الأمران فقال : (وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) إشارة إلى التوسط فى الأفعال والأقوال .

الثالث : وهو أن لقمان أراد إرشاد ابنه إلى السداد فى الأوصاف والإنسانية [٣]

---

(١) ينظر حاشية الشهاب ٧ / ١٣٨ .
(٢) ينظر فتح البارى ١٢/١٣٨ حديث رقم ٦٨٢٤ .
(٣) التفسير الكبير ٢٥ / ١٣٢ .

أما الملحظ الثانى : (بلاغى) فهو : أن أوثر لفظ الجمع ، لأن كلمة (الحمير) أسعد بالفواصل ، لأن من محاسن الفواصل والأسجاع أن تجرى على أحكام القوافى [١] .

والقافية المؤسسة بالواو ، أو الياء ، لا يجوز إن يرد معها ألف تأسيس فإن الفواصل المتقدمة من قوله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) هى : حميد ، عظيم ، المصير ، خبير ، الأمور ، فخور ، الحمير ، وفواصل القرآن تعتمد كثيرا على الحركات والمدود والصيغ دون تماثل الحروف ، وبذلك تخالف قوافى القصائد[٢]

وقيل : إن المقصود من الجمع التتميم والمبالغة فى التنفير فإن الصوت إذا توافقت عليه الحمير كان أنكر ، وأورد عليه أن يوهم أن الأنكرية فى التوافق دون الإنفراد ، وهو لايناسب المقام ، وأجيب بأنه لا يلتفت إلى مثل هذا التوهم . [٣]

وأما عن الفواصل فى القرآن واختلافها فى الحروف ، فإنه لا ضير فى أن تختلف الفاصلة ، ولديك على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى فى سورة العاديات " إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ، وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ، أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ " [٤]

و قوله تعالى فى سورة التكاثر : " كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ " [٥]

ولا ضير فإن التناغم الموسيقى بتبادل الحروف ، معروف عند العرب اعتادوه فى شعرهم ونثرهم ، ففى الشعر معروف أن هذا الحرف هو الردف وهو : " حرف مد أو لين يليه الروى ويكون ألفا ولا يكون ما قبلها إلا مفتوحا ... ويكون (ياء)

---

[١] ينظر ما كتبه البلاغيون فى السجع ، والفواصل ، والائتلاف

[٢] التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٩

[٣] ينظر حاشية الشهاب ٧ / ١٣٨ : ١٣٩

[٤] العاديات ٦ : ١١

[٥] التكاثر ٢ : ٥

مكسورا ما قبلها ... أو مفتوحا ما قبلها ... ونجوز للشاعر أن يأتى ببيت مردف بالواو ، وأخر مردف بالياء فى قطعة أو قصيدة واحدة أو العكس " [١]

---

[١] ينظر الكامل فى العروض والقوافى للأستاذ الدكتور / محمد قناوى ١٩١ : ١٩٢ – نشر مكتبة الجامعة الأزهرية ، والمنهل الصافى فى العروض والقوافى للدكتور محمد زين العابدين سلامة وآخرين / ١٠٠– ط: دار الطباعة المحمدية أولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م – .

الخـاتمـــة

وبعد هذا التطواف مع القول الفصل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مـــن خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وبعد هذه العجالة التى اقتضتها طبيعة البحث نســتطيع أن نخلص إلى النتائج الآتية :

- كتاب الله الكريم فيه المحكم والمتشابه ، ولكل منهما غاية وهدف ، أجمـل، "فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ "

- القرآن جاء متشابها مثانى لإظهار كمال القـدرة ، وإظـهار الحجـة ، ودحـض المحجة، وتسهيل حفظه ، وتنوع عرضه .

- المتشابه فيه آراء عدة أقربها للقبول ، وأسلمها من الطعن ما جاء متشـابها فـى اللفظة ، قد جاء فى تراكيبه تقديم أو تأخير ، زيادة حرف أو تضعيفه ، تعريـف كلمة أو تنكيرها وغير ذلك .

- أبرز ما جاء التشابه فيه القصص ، والمواعظ وما يتعلق بـالنعيم والعـذاب مـن مشاهد تشيب منها الرءوس تكون قبل وفى القيامة .

- موعظة لقمان ما هى إلا جزء من أهداف الرسالات السماوية مـن لـدن آدم – عليه السلام – حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وما وجدنا نبيـا إلا ونصـح أمته ووعظها بما وعظ به لقمان ابنه ، فـإنها رقة ورحمة فى قلوب أنبياء الله ، ورحمة رب العالمين سبحانه – أن جعل الأنبياء أشد حرصا مـن الأب الحـانى على ولده فأخلص له النصح .

- الموعظة فيها صلاح الدين والدنيا ، وإصلاح وتنظيم العلاقة بين الإنسان وخالقـه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان .

- النصح يأتى إما بالأمر أو النهى ، بالإنشاء أو الخبر ، فلا ملالة ولا تضجر فبان تغير الأسلوب يجعل النفس تقبل على الكلام .

- التناغم الموسيقى وجمال وقع الفواصل فى القرآن الكريم وإن اختلفت الأسجاع فيها .

- على الرغم من وجود التشابه اللفظى إلا أن كل آية بل كل كلمة لها مذاقها البلاغى الخاص الذى يجعلها نسيجا متفردا بما حوت من إعجاز فى نظمها مما جعل القرآن فعلا أحسن الحديث .

-التشابه لم ينقص من بلاغة القرآن بل زادها تأنقا وإعجازا ، ويحتاج التشابه إلى غواص ما حكته البلاغة فخبر دروبها وأتقن علومها ، وبرع فى فنونها حتى يمكنه أن يعرض الأسرار البلاغية التى حواها الكتاب الكريم

- هذا بعض ما تمكنت من إبرازه مما أفاضت على به العطاءات الربانية ولنا مع كتاب الله - إن شاء الله- عودات ، وعودات ، وعودات ..إن بقيت لنا أنفاس فى الدنيا نجعلها رهينة النظر والاعتبار والفكر فى كتاب الله مع رجاء التوفيق والسداد والصواب والرشاد .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

*****

المصادر والمراجع

١.الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى – ت: د/ مصطفى ديب ، ط: دار ابـــن كثـــير سوريا– .

٢.أساس البلاغة للزمخشرى – ط: دار صادر بيروت لبنان –.

٣.أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى – ت: محمود محمد شاكر ، ط: المدنى – .

٤.إعراب القرآن لمحيى الدين الدرويش– ط: دار اليمامة ودار ابن كثير . دمشـــق ١٤١٥هـــ/١٩٩٤م – .

٥.الأقصى القريب للتنوخى – ط: الخانجى بمصر – .

٦.الإكسير فى علم التفسير للطوفى – ت: د/ عبد القادر حسين . ط: الآداب بمصـــر ١٩٧٧م – .

٧.الإيضاح للخطيب القزوينى – شرح د/ خفاجى.ط : دار الكتاب اللبنانى ، خامســـة ١٤٠٣هـــ / ١٩٨٣م – .

٨.البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى – ط: دار الفكر ١٤١٣هـــ/١٩٩٢م – .

٩. بديع القرآن لابن أبى الإصبع – ت/ حفنى محمد شرف ط:نهضة مصر بالفجالـــة بالقاهرة – .

١٠.البرهان للزركشى – ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ط: دار الجيل بيروت لبنـــان ١٤٠٨هـــ/١٩٨٨م – .

١١.البسيط للواحدى .

١٢.بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز – ت: محمـــد علـــى النجـــار ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ثالثة ١٤١٦هـــ/١٩٩٦م – .

١٣.تحرير التحبير لابن أبى الإصبع – ت:حفنى شرف ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – .

١٤.التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط: تونس – .

١٥.تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط: دمشق ، سوريا – .

١٦.التفسير القرآنى لعبد الكريم الخطيب .

١٧.التفسير الكبير للرازى – ط: دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، أولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م – .

١٨.الجامع لأحكام القرآن للقرطبى – ط:الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ثالثة ١٩٨٧م – .

١٩.حاشية الشهاب على البيضاوى – ط: دار صادر ، بيروت ، لبنان – .

٢٠.حاشية محيى الدين شيخ زاده على البيضاوى – نشر المكتبة الإسلامية ، محمد أزدمير ، ديار بكر تركيا – .

٢١.الخصائص لابن جنى ت: محمد على النجار ، ط: عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، ثالثة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م – .

٢٢.درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز ، للخطيب الإسكافى – ط: دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ثالثة ١٩٧٩م – .

٢٣.دلائل الأعجاز لعبد القاهر الجرجانى ت: محمود محمد شاكر ط: المدنى ، نشر الخانجى بمصر – .

٢٤.ديوان أحمد بن الحسين (المتنبى) – شرح أبى البقاء العكبرى ، تصحيح مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ط: مصطفى الحلبى ١٣٩١هـ/١٩٧١م – .

٢٥.ديوان امرئ القيس ــ ط: دار صادر ، بيروت ، لبنان – .

٢٦.ديوان أوس بن حجر – ط: دار صادر بيروت لبنان – .

٢٧.ديوان الخنساء – نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٠ أدب ش ، وينظر المطبوعة ، بيروت ، لبنان – .

٢٨.روح المعانى للألوسى، – ط: دار الفكر ، بيروت ، لبنان – .

٢٩.وصف المبانى فى شرح حروف المعانى للإمام أحمد عبدالنور المالقى – ت : د/ أحمد محمد الخراط ، ثانية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ط : دار القلم ، سوريا –.

٣٠.شروح التخليص – ط: دار السرور ، بيروت لبنان – .

٣١.الصناعتين لأبى هلال العسكرى – ت: د/ مفيد قميحة ط: دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان أولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م– .

٣٢.الطراز للعلوى – ط: المقتطف ٣٣٢هـ/١٩١٤م ، وط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان – .

٣٣.فتح البارى لابن حجر العسقلانى ، ط: دار إحياء الكتب العربية ، بيروت ، لبنان – .

٣٤.فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن لزكريا الأنصارى – ت: محمد على الصابونى ط: دار القرآن الكريم ، بيروت ، لبنان أولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م – .

٣٥.فتح القدير للشوكانى –ط: دار الفكر ، بيروت ، لبنان – .

٣٦.القاموس المحيط للفيروز آبادى – ط: مصطفى الحلبى ، نشر دار الجيل ، بيروت ، لبنان – .

٣٧.الكامل فى العروض والقوافى للدكتور محمد قناوى – نشر مكتبة الجامعة الأزهرية بمصر – .

٣٨.الكامل للمبرد ط: صبيح ، و ط: بيروت – .

٣٩.الكشاف للزمخشرى – ط: دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان – .

٤٠.كشف المعانى فى المتشابه من المثانى لبدر الدين بن جماعة – ت: د/ عبد الجواد خلف منشورات جامعة الدراسات بكراتشى ، باكستان ١٤١٠هـ /١٩٩٠م – .

٤١.لسان العرب لابن منظور – ط:دار المعارف بمصر – .

٤٢.المحرر الوجيز لابن عطية – ط: فاس بالمغرب – .

٤٣.المستدرك للحاكم – ط: بيروت ، لبنان – .

٤٤.المصباح لابن مالك – ت د/ حسنى عبد الجليل ، ط: الآداب بمصر –.

٤٥.المطول لسعد الدين التفتازانى – ط: أحمد كامل بتركيا ١٣٣٠هـ – .

٤٦.معانى القرآن وإعرابه للزجاج –ط: عالم الكتاب ، بيروت ، لبنان – .

٤٧.معترك الأقران للسيوطى – ت: على محمد البجاوى ، ط' دار الفكر العربى – .

٤٨.مفتاح العلوم للسكاكى –ت:نعيم زرزور،ط:دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان –.

٤٩.مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى – ط: دار الكتب العلمية أولى ١٤١٨هـ١٩٩٧م – .

٥٠.ملاك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه اللفظ من آى التنزيل لأحمد بن الزبير الغرناطى– ت: محمود كامل أحمد ، ط: دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م – .

٥١.مناهل العرفان للزرقانى –ط: دار إحياء الكتب العربية بمصر – .

٥٢.المنهل الصافى فى العروض والقوافى للدكتور محمد زين العابدين سلامة وآخرين ط: دار الطباعة المحمدية بمصر أولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م – .

٥٣.الموافقات للشاطبى – تعليق محمد حسنين مخلوف ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – .